جمال الغيطاني

ساعات



ســـــاعَـــــات

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٤٨٣٥
ISBN 978-977-09-2895-1

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)+
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

جمال الغيطاني

ســـــاعَـــات

دار الشروق

المحتويات

فــــم

تطلعتُ إلى الباب منتظرًا ظهورها، أخبرني موظف الاستقبال بوصولها، قال إنها تعتذر لمجيئها متأخرة بعض الوقت، بالضبط خمس وعشرون دقيقة، بالأمس عبر الهاتف اتفقنا على الحادية عشرة والنصف.

لا بأس.. دعها تتفضل..

توقي إلى رؤيتها متأجج، لا أتذكرها على الإطلاق، عبثًا حاولت استعادة أي ملمح يوحي به صوتها، تبسمت نبراتها وتوددت فلم أشأ ردها خائبة عندما قالت:

«أكيد نسيتني..».

«كيف؟ وهل هذا معقول؟».

إجابة عامة، حذرة، تحتمل الصدق أو المجاملة، لا أدري دافعي على القبول، ربما إقبالها، وغموض الموقف، أو نبراتها المقتحمة، الراجية أيضًا، إضافة إلى تأهب كامن ممتزج بتوق إلى مبادرة.

عندما فُتح الباب على مهل وكأنها تأبى الظهور مرة واحدة، وقفت مرحبًا، متطلعًا، محاولاً استيعاب الملامح. لكنني عبثًا حاولت استعادتها، لم يكن لها أي قياس أو مرجعية عندي، لا من قريب أو من بعيد.

مؤكد أنني لم أعرف هذه القسمات، شعرها غلامي القصة، قصيرة، إطلالتها واثقة، عيناها فسيحتان، يستقر في منطقة قصية منهما حزن يصعب توصيفه أو شرحه، ربما كان هذا أول سعيي إليها هذه المرة، هذا إن صح وجود لقاء سابق محاه الزمن من ذاكرتي. لكن ما أبدته من ود لا يتناسب مع أمر عابر، يتضمن إقامة، والإقامة لا بد أن تخلف أثرًا مهما طال الزمن فكيف مُحيت من عندي؟

آثرت التزام الحذر، أن أجيب بألفاظ تحتمل أكثر من معنى، محايدة، أن أحتفظ بابتسامة مجاملة، مع تحسس دروبي إليها بحذر. لعل لحظة مباغتة تضيء هذه العتمة.

تلفتت حولها، تتأمل اللوحات المعلقة على الجدران، صورة ملتقطة لوقفة في ميدان القلعة، وشهادة أعتز بها من زمن الحرب.

«كل شيء كما رأيته منذ عشر سنوات.. لا.. أكثر قليلاً..».

تبدي انشغالا بالغرفة ومحتوياتها لتحيد مؤقتًا عني، أشارت إلى تمثال صغير، نموذج لأصل موجود في المتحف المصري، كاهنة مصرية اسمها «تي»، غزيرة الأنوثة، خصبة الطلة، وافرة التقاسيم، انتبهت إلى تشابه بينهما، تكوين الرأس، اتصاله بالعنق، شكل الشعر، غلظ الشفتين.

«هذا جديد..».

لم أكن واثقًا، التمثال منذ سنوات هنا، يلفت نظر كل من يجيء لزيارة المكتب، تبدو متعلقة به، كأنها تكتشفه في كل لحظة، لمعة عينيها، جسارة نظرتها وترددها خشية أي بادرة مني لا تتوقعها.

«وحشتني..».

تودع في اللفظ شفرتها وسر فهمها وحلها أيضًا. أعقبته بطلة داعية، ربما فوجئت بحيرتي، تقول عاتبة:

«إنت نسيت..».

أبدي المبالغة في الاحتجاج، بذلك ستثير أحزاني، أرجو منها أن تخبرني عن أحوالها منذ آخر لقاء، تتبدل ملامحها، مزيج من أسى وغضب.

«لكم سببت لي من ألم، أقصيتني عنك بقسوة، لم تعبأ بشعوري، قسوت عليّ، ورغم هذا كله أجيء لأسأل عنك وأشوفك..».

آه، بارقة لم أبد أي إشارة لإدراكي لها، تعلقت بحيز الفم منها، شفتاها تحتفظان بانفراجة مصدرها بروز أسنانها الأمامية، ملمح مستقر في موضع ما عندي لا يمكن تحديده، ثمة صلة بهذا الفم أو بآخر يشبهه. أثق بوجودها، لكنني لا أعرف مداها، ظروفها، مراحلها، بدءًا من الرؤية إلى الملامسة فالضم والتقبيل إلى تبادل مواضع الشفاه حتى امتزاجهما، أخشى النفي بالقطع أو الجزم، فأنهي أمرًا كان قائما بالفعل، يغيب عني الآن، ربما أستعيده فيما بعد، خاصة أن ثمة إشارة ماثلة أمامي، ذلك الفم، تلك الانفراجة

المعبرة عن رغبة قصية، دانية، موحية، تسعى إلى ري وارتواء، يتحرك أمر عندي ينهي حذر البداية، يحضني على الاستمرار، إن أنطق بما يحتمل المعاني والمتناقضات المتقابلة.

«يبدو أنني سببت لك قدرًا هائلا من الألم بغير قصد..».

ترفع رأسها، تبدو أكثر حدة..

«بغير قصد؟ كيف؟ هل نسيت كلماتك؟ ألم تدفعني عنك، ألم تقصني إقصاء؟».

«أرجو أن تضعي في الحسبان ظروفي؟».

تتلفت حولها.

«يخيل إليّ أن الظروف لم تتغير..».

«ربما صارت أقسى..».

تبسمت، تسفر عن مشروع غواية، تعود إلى اللحظة التي نطقت فيها «وحشتني»، نظري يثبت تجاهها، لا أحيد.

«يعني لا توجد علاقات؟».

«لا..».

«معقول..».

«بالتأكيد.. ليس عندي وقت..».

«إذن.. لم يتغير شيء..».

«ما أحتاج إليه الوقت، والأمان..».

«ماذا تقصد؟».

«لا يمكن لعلاقة أن تنمو إلا في ظروف آمنة.. إنني أشبه بالسجين، عمل مكثف ومسئولية غير هينة، عمل ترتبط به مصائر آخرين لا بد أن ينجح، لا بد أن يستمر..».

تمهلت، قالت:

«أنت تمهد لإيلامي كما فعلت أول مرة..».

يتهدج صوتها، تضم شفتيها، يبدو الفم أجمل، زهرة قانية لم تتفتح بعد، لا عضو يعبر عن الإنسان مثل الفم، يبدو عليه الأسى أو الفرح أكثر مما يبدو على الوجه أو في عمق العينين، تولي شطر الجدار المواجه، أفاجأ بدمعة، إلى هذه الدرجة؟ من هذه؟، أرجو ألا يدخل أحد من العاملين الآن، الفراغ مفعم بالتوتر والمعاني الخبيئة، يمكن لأي منهم استنتاجها، أحرص ألا أغلق الغرفة، فقط عند اضطراري لإجراء مكالمة هامة، أو كتابة مذكرة تقتضي تركيزا، الدمعة لا تعقبها أخرى، لا يربكني مثل بكاء أنثى.

«هل تعرفين ما أتمناه الآن؟».

تتطلع

«أن أجيء إلى جوارك، أن ألملمك في حضني وأن يستكين كل منا إلى الآخر..».

تبدو راضية، متقبلة، مدركة أيضًا لاستحالة ذلك.

«أريد أن أتحدث إليك على راحتي.. يمكننا أن نتناول الغداء أو العشاء معًا، أدعوك.. اقبل دعوتي..».

«أنا شرقي، لا أعرف كيف يمكن أن تدعوني امرأة..».

«لا.. أنت لا ترغب..».

«بالعكس.. لم أكن راغبًا فيك مثلي الآن..».

«صحيح؟!».

جرى استنفار حسي عندي، أغدقت عليّ ينابيع غامضة داخلي دفئًا حنونًا غمرني فأيقظ كوامني المجهدة، لم يكن ما أتجه إليه ملامحها أو حضورها المكنون وقوامها المتسق، خاصة تكوينها السفلي المدمج. ليس لمعة عينيها إذ تتوجهان نحوي في خليسات خاطفة محملة بالدعوة.

إنه فمها، ليس فقط لأنه الملمح الوحيد الذي أثق من رؤيته في ذلك الوقت البعيد المنقضي والذي تشير إليه بإصرار وأواجه هذا كله بعجزي عن إضاءة تلك المنطقة التي تحدد ما يفصلنا عنها بنحو عشر سنوات.

«جئت السنة الماضية واشتريت هذه الشقة قرب الهرم ليكون لي هنا مرتكز، ليس مهمًّ عدد السنوات التي تمضي في الخارج، المهم أن يكون لي مكان هنا..».

ما بين ضمة فمها وانفراجته أترقب، أقترب وأبتعد، بغتة أهوي، انحناءة الشفة العليا الممتلئة على التحتية السخية، تنفرجان مقدارًا لا يمكن ملاحظته، يشي ولا يفصح، يتبع أحوالها الداخلية فيتسع الفراغ

المؤدي إلى الداخل، إنه يؤدي إلى الاتجاهين، أيهما الأول وأيهما الثاني.

«لم أكلمك بمجرد وصولي، هل تعرف كم مضى عليّ منذ وصولي؟».

يبلغ التضام مداه عند الانتظار المتسائل، المتطلع، نتبادل التوقع، هي تتأهب للإصغاء إلى جوابي، ويطول توقي إلى انفراجة تزيد غمري، حتى أني لا أرى ما عداهما، ماعداه، ويتساوى صوتها عندي، الصادر عنها الآن أو من بعيد..

يونيو ٢٠٠٠.

سفـــر

الباب مفتوح في مواجهة الآخر غير المغلق،ضغطت الجرس متراجعًا إلى الخلف، تبسمت الدكتورة ماهرة، مودة بادية..

«تفضل.. تفضل..».

عبرت المدخل إلى الصالة مطرقًا، قبل جلوسي إلى المقعد المستطيل، ظهرت الأستاذة فائقة، وزميلتها رائعة، ماهرة أكبرهن سنًّا، أما فائقة فتبدو أطلاهن وأقواهن حضورًا وجذبًا للبصر المجرب، فارهة، شماء الطلة، متناسقة الملامح، دقيقة التصويب، أنثوية الحضرة، لو انطلقت على سجيتي لتوجهت إليها بالحديث، وليس إلى زميلتيها، لكنني آثرت التمويه فقصدتهن معظم الوقت، مع التفاتة تبدو استثنائية لكنها مركزة، محملة بالمعنى، والشفرات التي أتمنى فضها وإدراكها والرد عليها، غير أن الخاطر المهيمن مضمونه، هل سألقاهن مرة أُخرى؟

تأهبهن للسفر بادٍ، حقيبتان في الركن، مغلقتان، ما يتبقى فراش الشقة التي سيشغلها مستأجرون جدد، منضدة بسيطة حولها أربعة

مقاعد، إلى الجدار علقت صورة داخل إطار خشبي، مروج خضراء وكوخ فوق تل صخري، قالت ماهرة:

«ستأكل معنا.. فائقة أعدت لك أرزًا أوزبكيا..قلت لنا إنك تحبه».

أبديت تحفظًا، أعرف أن وقتهن محدود، ثمة أمور عديدة لا بد أن يقضينها، ستقلع الطائرة فجرًا.

«إلى استانبول.. ثم انتظار أربع ساعات بعدها إلى طشقند مباشرة».

للأسف، لا خط مباشرا بين القاهرة وطشقند، ظهرت فائقة تحمل بين يديها طبقًا كبيرًا يتصاعد منه بخار كثيف، ناشرًا رائحة تنفذ مباشرة إلى الذاكرة، أرز، عليه قطع لحم غزيرة، وزبيب وجزر أصفر مبشور، توسط الطبق المائدة، حوله خمسة أطباق أصغر، جاءت رائعة بالملاعق ودورق لبن رائب، تمامًا كأننا في بخارى أو سمرقند.

تدخل ماهرة، يتبعها سيادته، يرتدي قميصا أبيض، وبنطلونا أبيض مكويا بعناية.

«سعادة السفير..».

رد على تحيتي بانحناءة محدودة، قالت ماهرة إن سيادته الآن ليس صديقًا فقط لكنه بمنزلة الأخ العزيز، كان خير أنيس ومعين، سيفتقدنه كثيرًا، أومأ سعادته شاكرًا، قدمتني إليه، قالت

إنني صحبتهن إلى الآثار الإسلامية الهامة، خاصة المتشابهة مع العمارة الأوزبكية، قلت مؤكدًا:

«بعض المماليك جاءوا من أواسط آسيا. خاصة بخارى وسمرقند وتركمانيا..».

قال سيادته باقتضاب:

« أهلاً وسهلاً.. سمعت عنك من الصديقات..».

يتحدث الفصحى مثلهن، للمستعربين السوفييت طريقة في النطق يمكن تمييزها.

« تفضل معنا..».

تبسط ماهرة يدها داعية، لكنه يتراجع قليلاً يشير إلى هناك..

«إنني مضطر..أتوقع المكالمة بين لحظة وأخرى..».

يلتفت إليّ موضحًا:

«ابني الوحيد في فيينا.. يعمل بالأمم المتحدة منذ سنوات يطلبني عادة في مثل هذا التوقيت..».

تقول ماهرة بدلال خفي:

«سعادة السفير، في مثل هذه الساعة غدًا لن نكون هنا.. من فضلك».

كأنه فوجئ بمودة ماهرة ورجائها الأنثوي المتقرب، تطلع إلى الأرض مقدار لحيظة، كأنه قرر أمرًا:

«طيب.. طيب.. لكن دقيقة واحدة، سأقرب التليفون حتى..».

توقف فجأة ليسأل:

«هل يمكن إبقاء البابين مفتوحين؟».

تقول ماهرة مرحبة:

«طبعًا، طبعًا، من فضلك..».

عاد بعد لحظات، تطلع ناحية شقته، ثم توقف متسائلاً:

«أين مكاني..؟».

تقول فائقة:

«على راحتك يا سعادة السفير.. على راحتك..».

كنت أحاول أن أبدو على سجيتي، خاصة أن حرجًا داخليًا ينتابني عند تناولي الطعام في مكان لم أعتد عليه، أو مع أشخاص ألتقي بهم لأول مرة، حرصت على إبداء المودة لكن بتحفظ، تناولت دورق اللبن. ملأت الكوب الأول، قدمته إلى سعادته، أشار إليهن، لكن ماهرة أيدتني:

«تفضل سعادتك.. تفضل».

قالت فائقة إنها حرصت على إعداد الأرز الأوزبكي ليتذوقه سعادته قبل سفرهن، وأيضًا لاستعادة مذاقه بالنسبة لي، لكم يتمنين أن تتاح لي فرصة الزيارة مرة أخرى، قلت إنني أرجو ذلك، ولو أتيحت فرصة في أي وقت، لن أتردد، قال سعادته إنه لم يخدم في هذه المنطقة من العالم، لكنه قرأ كثيرًا عنها، خاصة بخارى وسمرقند، يظن أن سمرقند عاصمة تيمور لنك..

«بالضبط.. لكن الموقف منه هناك مختلف، نحن نعتبره سفاحًا، لكن..».

قال سعادته إن الموضوع طُرق من قبل مع الدكتورة ماهرة، قال إن الصلات يجب أن تتصل الآن بعد استقلال جمهوريات آسيا الوسطى. قال إنه تحدث إلى زملائه الذين مازالوا في الخدمة، الخبراء بهذه المنطقة، عن ضرورة تقوية العلاقات، قبل ذلك كان كل شيء يمر من خلال الاتحاد السوفيتي، عبر موسكو، لكنَّ الآن، ثمة ظروفا أخرى، قال إن ابنه زار جمهورية أذربيجان، كتب إليه من هناك، سألته عن طبيعة عمل ابنه، قال إنه من خبراء الأمم المتحدة المعدودين في شئون المياه، إن مقره النمسا، لكنه يسافر كثيرًا، يتحدث إليه من أماكن مختلفة، أحيانًا يطلبه من المطارات قبل أو بعد خروجه من الطائرة، إنه حريص على الاتصال به من أي مكان يصل إليه..

تتساءل فائقة عما إذا كان سيقصد أوزبكستان يومًا.

يؤكد سعادته إنه سوف يستفسر منه، وإذا تأكد هل يسمحن له بإرسال عناوينهن وأرقام هواتفهن إليه؟

أجبن في صوت واحد مرحبات، متمنيات تحقق ذلك يومًا، توقف عن المضغ، مد يده راجيًا الإصغاء.

«هل رن جرس الهاتف؟».

نزل علينا صمت، في لحظة واحدة توقفنا عن المضغ، ما من صوت، يقع البيت في نهاية شارع بمدينة نصر، يهز سيادته رأسه..

«ليس بعد..».

إن ابنه على وشك الوصول إلى مطار شارل ديجول، سيصل إلى القسم «أ». وينتقل إلى قسم «ف». ليستقل الطائرة إلى ساوباولو، عنده ساعتان فقط لتغيير الطائرة في باريس، لكن إذا تأخرت الطائرة سيواجه مشكلة، مثل هذه المطارات تتزايد الحركة بها، وأحيانا تستغرق الطائرة وقتًا فوق المدرج حتى تصل إلى الأنبوب ليخرج الركاب، كم الساعة الآن؟

«الثالثة والنصف..».

قال إن لديه ساعة ونصفا منذ الآن، يمكنه أن يتصل من الطائرة، لكنه لم يقدم على ذلك إلا مرة واحدة أثناء انتقاله من ولاية أوهايو إلى نيويورك، كان ذلك منذ عامين.

شرب جرعة من اللبن الحامض، قال إنه مفيد جدًّا للمعدة، قالت ماهرة إنها تفضل إعداده بنفسها، لا تفضل شراءه معلبًا، تحذر المواد الحافظة التي يعلنون أنها غير موجودة، لكنها ضرورية للحفظ، قالت إنها ستعد لسعادة السفير دورقًا من اللبن الرائب، وطبقًا خاصًا من الفطائر الأوزبكية، ترجو أن يتقبله منها قبل خروجهن فجرًا..

يقوم سعادته، ينحني، باسطًا يده، ملامسًا قلبه، قال إنه لا يمكنه رفض تلك الهدية الكريمة، لكنه يذكرهن بأنه سيصحبهن إلى المطار، لا ليس إلى المطار، إنما إلى باب الطائرة، باعتباره سفيرًا سابقًا فوق العادة، من حقه الدخول إلى المنطقة الجمركية، قال إنه سيصحبهن حتى باب الطائرة، تقول ماهرة إن هذا مرهق له، يؤكد أنه حريص على ذلك. لو أن ابنه مقيم لناب عنه، لكن أويقات

وجوده قصيرة جدًّا، لقد جاء مرتين إلى القاهرة خلال إقامتهن التي استغرقت سبعة شهور، تمنى لو قدمه إليهن، لكنه وصل وهن نائمات وغادر قبل استيقاظهن، خشي إزعاجهن في كلتا المرتين.

قالت إنها تود لو التقت به يومًا.

«سيحدث.. سيحدث».

يقوم واقفًا، يتجه إلى السيدات الثلاث، إيقاع الكلمات التي تُلقى عقب انتهاء المآدب الرسمية، بعد أن شكر مضيفاته:

«يسرني أن أتوجه بالدعوة لتناول الشاي، والدعوة لك أيضًا.. يشرفني ذلك..».

تقول فائقة ـ الأكبر سنًّا ـ إن ذلك جميل بشرط، أن تقوم هي بإعداد الشاي، يتجه سعادته إلى الباب، يتوقف حتى يتقدمن إلى شقته، تبعتهن، بقدر رغبتي في الانصراف، بقدر فضولي للإحاطة بالسفير، واضح أنهن يعرفن مسكنه جيدا، تتجه فائقة إلى المطبخ مباشرة، الأثاث قديم، لكنه نظيف، متين، المكان كله معتنى به، لوحة زيتية لامرأة تبدو كأنها قادمة من بعيد، وجه قوي الملامح لكن ثمة ضبابًا خفيًّا يؤطره بوقت ما لا سبيل إلى استعادته.

تميل ماهرة هامسة:

«إنها زوجته..».

يلحظ اهتمامنا، يشير إليها:

«المرحومة».

ينحني أمامها، تبدو ملامحه حزينة، تلحق ماهرة ورائعة بفائقة، يلتفت إليّ، يومئ باتجاههن..

«أساتذة بحق..».

ثم يقول:

«فاضلات..».

ثم يقول:

«لا أعرف من سيأتي ليسكن بعدهن..».

يشير إلى الشقة، إلى الباب المفتوح، المؤدي إلى باب مسكنهن المفتوح.

يبدو أنه انتبه إلى نبرة وهن بادية في صوته، يتطلع إلى الساعة، يتمنى ألا يكون قد وقع مشكل ما يعوق سفر ابنه إلى ساو باولو، ربما اضطر إلى تغيير الطائرة بسرعة، لم يجد وقتًا ليتحدث إليه، في مثل هذه الحالات يتصل فور وصوله إلى المحطة النهائية، إنه متأكد من اتصاله عند وصوله إلى ساوباولو، سيحتاج إلى عشر ساعات من الطيران المتواصل، كدت أسأله عن البلاد التي خدم فيها، لكنه أشار إلى غرفة مغلقة:

«هذه حجرته فيها كتبه وأسطواناته وملابسه..».

ثم قال:

«لا تفتح إلا عند حضوره..».

أغسطس ٢٠٠٠

سكرتارية

قال مدير الشئون الإدارية إن السيدة صفية ترغب في العمل معي، إنها سكرتيرة ماهرة ولديها خبرة وقدرة، لمدة ثمانية عشر عامًا عملت مع مدير قطاع المشروعات الداخلية، عندئذ تساءلت بتلقائية عن سبب تركها موقعها، أجابني بغموض، وقال بعض جمل أدركت منها أن القرار حتمي، وأن الاختيار وقع عليَّ لأنني الوحيد بين من يماثلني في الدرجة الوظيفية الذي لم تُلحق به سكرتيرة، الحقيقة أنني لم أطلب ولم أسع بسبب المكان، إذ حرصت على البقاء في مكتبي الصغير الذي مكثت فيه عدة سنوات حتى تمت ترقيتي إلى الدرجة الممتازة، المفروض أن يتغير مكاني إلى آخر أفسح، ملحق به مكتب لسكرتيرة وخط فرعي للهاتف يمكنها أن تحول إليّ ما أرغب من مكالمات وتحجب عني ما أرفض، لكنني أبديت الرغبة في البقاء، قلت إنني لست بحاجة إلى سكرتيرة. لن يسبب لي هذا اضطرابًا، كما أنني لطبيعة عملي لست حريصًا على المظاهر المصاحبة للموقع الوظيفي، مثل أثاث المكتب ونوعيته، عدد المقاعد، وطبيعة الإضاءة، فضلت البقاء لأسباب، منها ارتباطي بالمكان واعتيادي عليه، وزعت عددًا من اللوحات والصور على

الجدران لصلتي بكل منها، وشيجة خاصة لا يعرفها غيري، من ذلك على سبيل المثال لوحة زيتية لطريق يمضي محاذيًا لمشهد الإمام الحسين، تعلقي بالمكان عميق، قديم، أحن إليه وأستعيد دقائقه أينما وليت، اللوحة في نفس الاتجاه. أما النافذة فأعدها مرتكزي، تمتد بعرض الجدار، أطل منها على أفق مفتوح يندر رؤية مثله من وسط المدينة، المباني القائمة إلى الناحية البحرية منخفضة لقدمها، معظمها يمت إلى بدايات القرن السابق. المقر يرتفع إلى أربعة عشر طابقا، بداية ظهور بنايات أخرى مرتفعة تزيل العتيق شيئا فشيئا، لن يحدث هذا قبل عدة سنوات أبلغ عندها التقاعد، رغم صغر الغرفة أثارت إعجاب صحبي وسائر ضيوفي، خارجها تمتد صالة مستطيلة تتكدس فيها المكاتب، أحيانا أسمع ضجة الموظفين فلا أخرج ولا أطل إلا لمجاملة أحدهم أوتقديم عزاء أو السؤال على مريض، ينبهني محمد الساعي الذي لزمني وصار عالمًا بكل ما أقوم به وأرغبه أو أحتاج إليه، الحقيقة إنه كان يتجاوز عمله إلى ما يقارب مهام السكرتير، يرتب الأوراق ويحفظ الصادر والوارد والخطابات الخاصة، وتلك الواجب الرد عليها، لهذا لم يرحب بمجيء صفية، قال إنها مثيرة للمشاكل، وتتغيب كثيرًا، لو فيها خير لما تخلصوا منها، قال غاضبًا: إذا كان لا بد من سكرتيرة فلماذا لم يختاروا شابة نشيطة تعمل فعلاً، أصغيت إليه صامتًا، قدرت انفعاله، ربما تنال من مكانته أو بعض ما يقوم به، في اليوم التالي جاءت، طرقت الباب مرتين، قالت إنها المدام صفية، عندما رأيتها تعجبت، كيف لم ألتق بها من قبل، أراها لأول مرة، أرجعت ذلك إلى ضخامة عدد العاملين، وملازمتي الغرفة معظم وقتي، قلة

انتقالي داخل المبنى، وربما لنفوري من العمل، من المؤسسة، لكن الفرص المتاحة لا تفي بترف الاختيار، كنت مضطرًا، ومنذ أربعين عامًا لم يخفت أملي في فرصة أفضل، في مكان آخر، لم يتلاش ذلك رغم دنوي من التقاعد، في المدة المتبقية يتخذون قرارًا بنقل سكرتيرة للعمل معي، تطلعت إليها مستكشفًا، ملامحها عادية، قدرت تجاوزها الأربعين، ممتلئة إلى حد ما، متوسطة الطول، عيناها منحرفتان، ربما في تكوينها دماء صينية أو آسيوية، وجهها مفلطح، تغطي شعرها بمنديل خفيف، تبرز خصلاته من الأمام، لكن ثمة شيئا فيها نفرني، أو قلقل راحتي، لم أستطع تحديده تمامًا، لم أجد تعبيرا عنه إلا أنها فرغت للتو من الأكل بيديها ولم تغسلهما بعد!

قلت إن الصالة مكتظة، وإنني آسف لعدم قدرتي على توفير مكان لها، رفعت يديها، طلبت مني ألا أعول همها، ستتصرف، صمتت لحيظات لتقول إنها تعرفني جيدًا من خلال الأوراق التي تمر أمامها، وعبر ما تسمعه عني، تغيرت لهجتها إذ قالت إنني طيب السيرة، والكل لا يذكرني إلا بالخير.

لم أدر ما تقصده بالضبط، أي أوراق تعني؟ هل تريد إبلاغي رسالة ما؟ على أي حال لم يعجبني مدخلها إلى الحديث، كما أن حضورها ثقيل، خشيت من تكرار دخولها، خاصة أنني أمضي معظم الوقت بمفردي لطبيعة عملي، محمد يعرف التوقيت المناسب للدخول وللحديث، جاء قبل الانصراف أشار إلى زر بجواري، قال إنه جرس يسمع بوضوح في الصالة، يمكنني استخدامه عندما أحتاج إليها، تطلعت إليه مؤنبًا، صمت، فهم ما أعنيه، إذ لم يحدث

قط أن استخدمت الجرس لاستدعائه رغم أن هذا طبيعي جدًا في مختلف الإدارات، في اليوم التالي عند عبوري الصالة رأيتها تجلس بجوار موظفة نحيلة أراها دائمًا منحنية على شغل إبرة، تطلعت إليّ وكأنها تقول: انظر لقد جئت مبكرة قبلك، أحرص على الحضور قبل الجميع، يبدو أنها عرفت ذلك عني، بعد دخولي طرقت باب الغرفة وقفت مبتسمة، قالت: إن محمد ذهب إلى المكتب الأمامي لإحضار البريد الداخلي، أومأت، قالت: هل تأمرني بشيء؟، قلت: إنني عندما أحتاج سأطلبها، قالت إنها تجلس هنا، وبعد قليل طرقت الباب مرة أخرى، بدت ابتسامتها أفسح، مقدمة للحديث عن أمر ما، قالت: أنت قليل الطلب جدًا، بل إنك لا تطلب ماتستحقه، قلت: إنني لا أحتاج شيئا، قالت: إن ضروريات هامة تنقص المكتب، منها تليفزيون متصل بالدش، وأيضًا وصلة هاتف لكي تحول إليّ المكالمات، كما أن المقعد الرئيسي العريض جلده متشقق، يكفي الكتابة إلى المشتريات لتغييره.

أصغيت إليها صامتا، قلت: إنني على هذا الوضع منذ سنوات، ولن تمضي شهور معدودات إلا وأحال إلى التقاعد، لا أريد إزعاج الإدارة، قالت: إنها حقوق مفروغ منها، فلماذا التساهل فيها، قلت: إنني أعرف ما أفعل، الحق أنني لم أسترح لمواصلة الحديث عن أمور تتعلق بي وتتصل بالإدارة، في بداية الأسبوع الثاني لنزولها، فوجئت بها مبكرة، تجلس وراء مكتب، بدا واضحًا أنه إضافة إلى الموجود، في الركن القريب من مدخل غرفتي، تبتسم، وقفت مرحبة، قالت إنها طلبت هذا المكتب وتمت الاستجابة، لم يتبق إلا وصلة الهاتف، دخلت مكتبي متعجبًا، كيف استطاعت في هذه

المدة القصيرة إنجاز ما تطلب، بعض المكاتب في الصالة يجلس إليها اثنان، ثمة اكتظاظ، محمد الساعي خفض صوته عندما أفضى إليّ بما قامت به، قال إنها راحت تستفسر، وتسأل عن كل مكتب في الصالة، علمت أن أحدها يخص زميلا سافر إلى الخليج معارًا إلى مؤسسة فنية، جرت التقاليد في المبنى أن يتم الاحتفاظ بمكاتب المسافرين في إجازات طويلة، أدراجها مغلقة لكنها لا تخص آخرين، يمكن للبعض أن يجلس، أن يمارس عمله، لكن مثل هذه المكاتب تخص أصحابها، عند الوفاة لا يتم التصرف في مكانه على الفور رغم الحاجة إليه، لا بد من مضي أربعين يومًا قبل اتخاذ قرار بإحلال شخص آخر محل الراحل، حالة واحدة يتم بعدها التغيير عندما يُبعد شخص عن موقعه لغضب حل عليه من القيادات الأعلى، عندئذ تبدو الهمة ويتم استبدال كل أثر له أو محوه كأحد مظاهر التنكيل التي تلحق بكل مغضوب عليه، كيف استطاعت صفية إذن؟

لأول مرة أكتشف أن ثمة صلات وثيقة تربط السكرتيرات في المؤسسة كافة، ولأنهن الأقرب يقدرن على تيسير ما يصعب على قيادات رفيعة، استطاعت من خلال سكرتيرة مدير الشئون الإدارية أن تحقق استثناء، إذ صدر قرار بنقل مكتب أخصائي التصميم المسافر إلى دولة الإمارات، يتم تجديد إجازته سنويًا، على غير المألوف تم نقله بأدراجه المغلقة إلى المخزن، قيل إن حاجة العمل تستدعي ذلك، جاءت مبكرة بصحبة أربعة عمال للنظافة وقامت بتحريك المكاتب، أعادت ترتيبها في الصالة بحيث أصبحت قريبة جدًا من مدخل غرفتي، بدت مستقرة متمكنة وكأنها أمضت مدتها

كاملة في هذا الركن، بعد حوالي ساعة طرقت الباب، تقف متكئة إلى الجدار، ثمة دلال أنثوي غير مفتعل، غير مبتذل أيضًا، من طبيعتها:

«سيادتك تشرب شاي..».

الحق، إنها مصدر لكل ما يثير الدهشة، كأني أتعرف على المؤسسة لأول مرة، قلت إنني عندما أشرب الشاي أطلبه من البوفيه، قالت بدلال إنها ستكون تحت أمري لو رغبت قهوة أو حلبة أو ينسون، كله موجود!

خفض محمد صوته، قال إنها أتت بسخان كهربائي، وحولت جزءًا من الفراغ المجاور للمكتب إلى ما يشبه نصبة مقهى، قال إنها تشرب فنجان القهوة، ثم تقلبه على الطبق، وبعد فترة تتأمل فيه، هكذا نفذت إلى جميع الزميلات في الخارج، تعد لهن القهوة، ثم تقرأ لهن الفنجان، يتسابقن عليها والآن تحدد مواعيد، تقول لهن إنها تخشى الانشغال عني، مع أنها لا تقوم بأي شيء ملموس، ما زال محمد يبدي خشيته منها، من تغلغلها البطيء، أصبح مصدري في معرفة ما تقوم به في الخارج، أغرب ما أفضى به إليّ أنها تجمع زجاجات المياه المعدنية الفارغة صغيرها وكبيرها، تجمعها في كيس من النايلون كلما توفر عدد منها وتأخذها، قال متعجبًا، لا أدري ماذا تفعل بها.

في ظهيرة تالية فوجئت بها تقف عند الباب، لا أدري كيف فُتح أو متى، على وجهها تلك الابتسامة التي تعني أنها أنجزت أمرًا، قالت:

«تسمح لبتوع المشتريات..».

يحملون أريكة ومقعدين وثيرين، طلبت مني أن أتفضل وأنتظر في الخارج قليلاً، لن يستغرق الأمر إلا خمس دقائق، خرجت إلى الممر، رحت وجئت فيه وعندما رأيت الرجال ينصرفون شكرتهم، مضيت إلى مكتبي، تغير المنظر، قلت لنفسي: إن هذا حظ من سيأتي بعدي، سمعتها تنطق بهدوء:

«ضيوفك محترمين، لا يصح أن يجلسوا على مقعد ممزق..».

بعد دقائق أطلت، قالت إنها تستأذن غدًا لن تأتي، لأن «سلفتها». مريضة، لم أدر موقع السلفة في العلاقات الاجتماعية، أهي أم الزوج؟ لكن تلك تدعى الحماة، أم أنها زوجة شقيق الزوج، بدا اللفظ غريبًا، لم أسمعه منذ سنوات، ربما أصغيت إليه في الأفلام، قالت إنها ستقوم بإجازة عارضة، أومأت موافقًا، لا يعنيني حضورها أو غيابها، حتى الآن رغم توددها لم تصبح بعد جزءًا من دائرة العمل أو التفاصيل التي تخصني، لم أعبأ أيضًا بما قاله محمد أنها رتبت أمورها مع سكرتيرة مدير الشئون الإدارية لكي توقع في كشوف الحضور والانصراف بدلاً منها، يبدو أنهما اتفقتا على التوقيع في حالة غياب أي منهما، وبالتالي لا تحسب الإجازات ولا تخصم من رصيدهما، حوالي الثانية عشرة رن جرس الهاتف، بدا الصوت غير مألوف، طلب مني أن يتحدث إلى المدام صفية، قلت إنها غير موجودة اليوم، في اليوم التالي عندما أطلت من الباب، أخبرتها أن الحاج صبري يطلب منها الاتصال به، أبدت الأسف، قالت إنها حزينة لإزعاجي، وأنها ستعرف كيف تحاسبه، لقد تركت رقمي

المباشر عند ابنتها فقط لتتصل بها في حالات الضرورة القصوى، أشرت بيدي، قلت إنه لم يحدث شيء مهم، كنت راغبًا في خروجها من الغرفة، لكنها عادت بعد ساعتين لتقف مطرقة، مبدية الخجل، قالت إنها مضطرة، إن الهواتف في الخارج مشغولة، إنها في حاجة إلى إجراء مكالمة، مالت قليلاً إلى الأمام، قالت إن ثمة أزمة حادة تمر بها مع زوجها، وإن امرأة أخرى لافت عليه، وإنها طلبت الطلاق، فلن ترضى أبدًا بضرة.

أشرت إلى الهاتف: «اتفضلي».

بدأ صوتها مرتفعًا، ثم خفت، رغم أنها تقف أمامي مباشرة، لكنني لم أكن قادرًا على فهم أي شيء مما تقوله، درجة هادئة من الصوت لم أعرفها من قبل، لم يفلت إلى سمعي لفظ رغم احتدادها أحيانًا، أكثر من عشر دقائق، أخيرًا خرجت قاصدًا دورة المياه، عندما عدت كانت لا تزال تقف، أصابع يديها تتشابك أمامها.

«اعذرني من فضلك.. لم ..».

قلت مقاطعًا:

«لا بأس .. لا بأس..».

بعد لحظات دخل محمد، بدا متوترًا، قال إنه علم الآن أنها تجيء مبكرة وتجلس إلى المكتب ولا تكف عن الحديث، وأنها تبقى بعد انصراف الجميع، هذا...

رن جرس الهاتف، صوت سيدة من الواضح أنها تتحدث من طريق عام.

«ربنا يسترك يا أخويا ممكن أكلم صفية هانم..».

عندئذ تساءلت جدًا:

«أقول لها من؟».

«نفيسة الشغالة.. أصلي مش حقدر آجي بكرة..».

نظرت إلى محمد، ثم رفعت صوتي:

«صفية هانم..».

جاء صوتها من الخارج ملهوجًا، سريعًا:

«أيوه..».

قلت بدرجة أكثر ارتفاعًا:

«تليفون..».

يناير ٢٠٠٠

شغالة

آه..

رأتني، بسرعة أغلقت الباب، لكن اللحظة كافية كي تستوعبني ولكي أرى نظرة عينيها لحظة دخولي بالكامل مجال رؤيتها، استوعبتها وأدركتني بالنظر.

جزء من الثانية ربما، لحظة لكنها عارمة، محملة، سرى عبرها ما لم أعرفه من قبل، بعثت دفئًا عندي وقيلولة، صابة في أوردتي ذلك اللهب الهادئ الآتي من بعيد.

لم أتحرك، بقيت داخل عربي المكتمل، متطلعًا إلى جهة الباب، كأنها لا تزال على نفس الوضع المنحني، رأيت وجهها محاذيًا لمقبض الباب، دائما تلك الانحناءة، لا أستدعيها عن بعد ولا أراها إلا منحنية، صمت هادئ يفيض بالرغبة ونية الشروع الموءودة، يكفيني أنها ألمت بي، عيناها امتلأتا دهشة، مع وضعها هذا حاذت ملامحها نصفي الأسفل الذي اتجهت إليه بنظرها مباشرة، الآن تعرف هيئتي، وتكويني المكنون، لا بد أنها تستعيدني كما أسترجعها على مهل، بتؤدة، لم أشأ إفساد اللحيظة النادرة وما

بعثته عندي، أعرف أنها لو تكررت فلن يكون لها عين تلك الطلاوة، حلاوة الفجأة، خليسة البغتة، صنو الصدمة التي لا تورث ألمًا، إنما لذة متصاعدة.

لم أتجه إلى الحوض، لم أفتح الصنبور، أجاهد لإطالة اللحظة والنظرة، مستعيدا هذه الانحناءة، رغم أنني لم ألم بردفيها ومتانتهما وتكامل استدارتهما المتقببة، إلا أنني تنسمتهما عندما أغمضت عيني.

أراها عندما عدت من المكتب لأجدها في البيت أول مرة، تقف عند المدخل، بكامل حضورها المستوفز، المستنفر، ترتدي جلبابا من قماش خفيف مشجر، أول ما وقعت عيناي على منبت نهديها، فالق واضح، دال، مؤدٍّ، وحلمتا صدرها المشرئبتان، المتطلعتان بدون حجاب، لم تكن ترتدي مشدا، وكان نفورهما مما أذهلني حتى أنني لم أنأ عنها بنظري للحيظات معدودات، مهما بلغ قصرها إلا أنها دالة، مدلة، واجهتني بتكوينها البض، بفيضها المتأجج، وعندما نطقت أضافت بصوتها المنكسر وخضوعها البادي وقودًا إلى نار هادئة اندلعت ولم تهدأ:

«أهلاً يا بك.. أنا الشغالة الجديدة..».

بل أنت قديمة، عتيقة جدًا، تماما كالخلق الأول بلا تزويق، بلا تنميق، بلا زيادة أو نقصان، الأنثى في مصدرها الأول، توسط قامتها، وقوة بنيتها الواضحة مع كمال استداراتها ورحابة حوضها الداعي إلى لم الشمل، والتئام الجمع ونهاية الفرقة وانطواء البعد.

اتجهت مباشرة إلى غرفتي، زوجتي لم ترجع بعد من عملها،

رحت أخلع ملابسي متمهلا، مدركًا أنها تتحرك بكينونتها تلك في البيت وعندها إدراك مكتمل بوجودي، بانفرادنا، ذكر وأنثى في حيز محدد، مهما كانت الفوارق.

استفسرت عنها بصوت محايد وملامح لا تنبئ عن شيء، ولا تشي بما جرى عندي، لا بد أن امرأتي لم تشك في إمكانية تطلعي إلى شغالة، كما أن تقدمي في السن ودبيب وهني من العوامل المطمئنة، لكن هذه الشابة أثارت دفائني وفضت خبيئتي.

قالت إن بواب العمارة المجاورة اصطحبها وضمنها فقررت أن تستعين بها لمدة أسبوع على سبيل التجربة، إنها صعيدية من منفلوط، زوجها عامل في مصنع، أحالوه إلى المعاش المبكر بعد بيع المصنع لمستثمر عربي، منذ عامين يحاول الالتحاق بعمل لكنه فشل، هو الآن في البيت وهي التي تخرج إلى العمل، إنها المرة الأولى بالنسبة لها، المهم أنها أمينة وعفية..

فعلا، عفية، لكن العافية بالنسبة لزوجتي تختلف عنها عندي، دملجة جسدها وانحناءة كتفيها الملساوين تثير ضجيجي المكتوم، وتعد بنيران ألمح لهبها وربما لا أقدر على الاقتراب منها فما البال باجتيازها؟ رأيتها على مراحل، أو بدا لي منها تخوم وتلال، كلما تقاطع مدارها بمداري واتضح منها قبس.

المرة القصوى، عندما كنت أعبر الصالة، فوجئت بها منحنية، تلمع خشب الأرضية، لو رآنا شخص ثالث لحدق دهشًا في بغتتي، توقفي وانبعاث نظرتي مشدودة، متصلبة، إلى مركز استدارتها.

وضع يثير هلعي وهذياني، أرفرف عنده، فما البال إذا كان

الجسد المنحني المولي مؤخرته نحوي، متفجرًا بالحيوية والملاسة والمتانة المرغوبة، خطوط ناصعة لا لبس فيها، واستدارات لا شك فيها ولا حيدة عنها، ينحسر الثوب الخفيف حتى يكشف باطن ساقيها، ثراءهما، لكن ما أصابني برجفة ردفاها المرتفعان في الفراغ، المتممان لمشروعي كله، الحاضان على هلاكي، أندفع صوبها، تفاجأ، أحذرها، بما أصدره من أصوات ترتد بي إلى حالتي الأولى، لكنها لا تفصح عن شيء ولا تؤدي إلى معنى محدد، أزوم، أزفر، أوشك على الولولة، تتدفق مني قوة أفاجأ بها، ويصل اقتداري درجة لم أتوقعها، أمزق الجلباب، أشرع في الاستيلاء على حضورها كله، بدءًا من لون جسدها الأسمر الخمري المشرئب، بحمرة دافئة، أشد شعرها، أديره حول قبضتي، كلما حاولت الإفلات أشده فلا يزيدني ألمها المنطوق إلا وهجًا، وشيئا فشيئا أحتويها كلها من الخلف، إذ تستكين وتهدأ مستسلمة، أقبل وادي ظهرها قبل تقبب ردفيها، وأمرر لساني على حوافها غير عابئ برائحة عرقها الفتية وتوسلاتها المستضعفة ألا أفضحها وأن أسترها لكنني أتجاوزها بسرعة إلى الداخل، أغلق الغرفة، تتوالى أنفاسي، أغمض عينيَّ، أتمنى أن تتبعني، تعقبتني بالنظر، لا بد أن توجهات بصري نفذت إليها عند عبوري بجوارها وانتباهي بعد انفرادي إلى حالي..

«لا مؤاخذة يا سعادة البك..».

صوتها في حد ذاته مستنفر، محفز، بلينه وضعفه واستسلامه البادي وإعلانه عن خضوعها الكامن، مع اقتراب نهاية الأسبوع لم أبد اهتماما ولم أستفسر، قالت زوجتي بعد أن تابعت نشرة التاسعة:

«على فكرة.. ما رأيك في الشغالة الجديدة..».

بزغ في أفقي تلها الحاض بانحناءته وقبساته، عبورها الصالة مع انحسار الجلباب لبروز ردفيها وانحساره في شقها الموضح.

«شغلها نظيف..».

أمنت على ملاحظتي، وافقتني..

«أهم ما فيها..».

حيادية صوتي واجبة، قالت زوجتي إنها أمينة جدا، تعمدت أن تضع في طريقها أوراقا نقدية من فئات مختلفة، لم تلمسها، قالت إنها أحبتها عندما قسمت قطعة شيكولاتة إلى نصفين، نصف أكلته والنصف الآخر لفته بورقة، تحتفظ به لطفليها..

«لمسات بسيطة.. لكنها دالة..».

أبديت ارتياحي لأنها عثرت أخيرًا على من تريحها وتأمن لها، ثم انتقلت بالحديث إلى الوفد الزائر، وضرورة مصاحبتي له، وهذا يعني أنني سأتناول غدائي معهم غدًا.

أتحدث عن الأمور كلها وذهني منصرف إليها في غيابها، وقبل نومي أتدثر بها، أستدعيها لتبث الدفء إلى طرقي ومسالكي، أستحلب تكوينها، أعرف الآن مساراتها، مجيئها في ساعة محددة، قالت لزوجتي إنها تركب العربة مع أخريات، كلهن يعملن في بيوت الضاحية، الغريب أن أزواج معظمهن بلا عمل. قالت إن الرجال يجلسون في البيوت مع العيال، والنساء يخرجن إلى الرزق، اندلعت مرة أخرى عندما تأخرت في الخروج، بقيت في مكتبي أنجز أمرًا،

فوجئت بالباب يفتح على مهل، حتى فتحها للباب لين، مثير، تدخل الفراغ عليّ، تجتازه بحنية، تحمل صينية فوقها كوب شاي بالنعناع، سكره خفيف، خطوها، وضعها للصينية، انحناءتها الخفيفة الكافية لتوتر ثدييها.

«تفضل يا سعادة البك..».

منذ زمن طويل لم أتعرض لتلك المبادرة، ذلك السعي نحوي، كيف عرفت أنني أشرب الشاي بالنعناع والسكر اليسير؟. وددت ألا تنصرف، أن تبقى لتغمرني بفيضها الأنثوي، الحاني، في كل يوم يلوح منها جانب لم أره من قبل، انصرفت متمهلة، وتلاءم حالي مع سعيها فلم أفتك بها ولم أباغتها من خلف أو قدام إنما تنسمت راحتها، وشكرت لها عنايتها، لم أنطق إلا بشكر حيادي، ولم يكن بوسع أي راصد إلا أن يرقب ما بين السيد والخادمة، لكن الأمر غير المنطوق كان ينمو، والبث من عندي يغمرها، وسعيها الحذر، وليد الصدفة يتقاطع مع مداري، وإذ يخلو البيت بعد انصرافها، أبدأ في استدعائها، والنطق إليها والإصغاء منها، أغضب لها وأسعى إليها، حتى اتحدت عيناي بعينيها وكان تمامي تلك اللحيظة، عندما احتوت عريي ورغم انسحابها بسرعة، إلا أنها بقيت حولي، أشرع حينا، وأقدم حتى يصعب عليّ الفصل بيني وبينها، أفقد الإحساس أنها هي، وأنني....

يونيو ٢٠٠٠

ساعات

تصل القطارات من قبلي ومن بحري إلى محطة مصر، يفارقها الركاب، كل إلى وجهته، ربما يتردد بعضهم لحيظات تطول أو تقصر، لكنه سرعان ما يذهب، المحطة بأرصفتها وساحاتها ومداخلها التي هي مخارجها نقطة عبور، لكنه أقام، لا يعرف شخصًا غيره جاءها وبقي بها، لم يفارقها إلا نادرًا، لا يعرف مكانًا غيرها.

أبعد ذكرياته، وأول ما يستعيده مرتبط بالمحطة، بوالده الذي عمل عتالاً يشيل الحقائب والأجولة والقفف، أثقل الحمول، لكن والده لم يقم بالمحطة، استأجر غرفة صغيرة تحت سلم بيت قديم خلف المستشفى القبطي، أي على مسافة دقائق من المحطة، كان يصحبه معه، يده لم تفارق يده إلا عند وصول قطار وسعيه إلى حمل حقيبة هذا أو قفة ذاك أو حمولة هذه، أحيانا يستدعيهم المسئول عن تحميل قطارات البضائع التي تقف بعيدا عن أرصفة الركاب، لم يتركه وحيدًا، كان يخشى أمرًا مجهولاً لم يفصح عنه في سنوات العمر الأولى، خطر غامض قادم من قبلي حيث القرية التي ولد بها والتي خرج منها ليلاً مصطحبًا ابنه الذي لم يتمكنوا

من الإمساك به، لم يفسر الأمر ولم يفصله أثناء الحديث الليلي الذي يسبق النوم، كان حانيًا على ابنه عبد العال، عمل له أمًّ وأبًا، وحاول أن يجنبه ما عرفه من مشاق وصعاب، يمكن القول إن عبد العال أصبح ابنا لكل من في المحطة، بدءا من الناظر والمساعدين والمفتشين وحراس الأمن والبوليس العلني والسري، كلهم يعرفونه، كان الزمن جميلاً، معاونًا، والناس قلوبها رحيمة، كان يجري من هنا إلى هناك، من رصيف إلى رصيف ومن قطار إلى قطار، يبدي الهمة، سعى هنا وهناك، لا ينهره إلا الغريب، كل من في المحطة يعرفه، عبد العال ابن جابر الصعيدي، كان يحرص على حضور لحظات تحرك القطارات خاصة إلى الجنوب، الإصغاء إلى هديرها المبتعد ونفث بخارها وطشطشة مراجلها، ثم ذلك الصفير الحزين المثير للحنين، بشكل ما كان يعرف من نثار كلمات والده أن ظلمًا لحقه هناك في قرية صغيرة تقع على حافة الصحراء إلى الغرب، وأنهم فرقوا بينه وبين امرأته «أمه». ولينقذ حياته وحياة ابنه اضطر إلى الهرب ليلاً، مشى مسافات ومسافات، ثم استقر في آخر مكان يخيل إليهم أنه سيوجد فيه، محطة مصر، هل سمع أحد عن شخص أقام في المحطة؟ مكان المسافرين؟ هو، صحيح أنه لم يكن ينام فيها، ولكن رزقه ارتبط بها، وفي المحطة المخيفة للغريب لم يخش على ابنه قط، في ساعة معلومة يلتقيان ليلاً، ينصرفان إلى الغرفة الصغيرة التي لم يكن داخلها إلا حشية يتمددان فوقها وموقد بريموس وعدة الشاي، وإناءان للطبخ الذي كان الوالد يتقنه خاصة في أيام الجمع التي يحرص على قضائها بعيدا عن المحطة إلا إذا دعت الضرورة.

حفظ عبد العال مواعيد القطارات جميعها، النهارية والليلية، المتجهة إلى قبلي وإلى بحري، القادمة أيضًا، ليس قطارات الركاب فقط، إنما البضاعة أيضًا، عرف السائقين، وكان خياله يجمح إلى حد رؤية نفسه في موضع أحدهم، قائدًا لقطار.

يذكر أول مرة قصد فيها الاستراحة، في الأربعينيات كانت مفروشة فرشًا وثيرًا، الأسرة من خشب، والأغطية نظيفة، وبجوار كل سرير صوان صغير من خشب، وكان الحمام مزودًا بالماء الساخن والبارد، النوافذ محكمة الإغلاق، وفي السقف مراوح لا تتوقف شهور الصيف، أوصاه عم أحمد السائق البدين أن يوقظه في السادسة صباحًا، في الموعد المحدد تمامًا قصد الاستراحة، سبق أباه إلى المحطة، ومنذ أن دخلها يمكن القول أنه لم يخرج منها حتى ذلك اليوم الذي لم يتصوره قط ولا تمنى شروق شمسه عليه حيًا.

لم يوقظ عم أحمد السائق فقط، إنما تردد على الاستراحة ليعد الشاي الثقيل المضبوط بعد أن أخبر رجب العطشجي زملاءه بقدرته على ضبط المقادير، ونفسه الحلو في إعداد القهوة مضبوطة، وعلى الريحة وزيادة وطبعًا.. سادة، ثم زاد بإعداد الأرغفة المحشوة بالفول والطعمية، أو الجبن الأبيض والحلاوة الطحينية، شيئا فشيئا أصبح له ركن في الاستراحة فيه ما يلزم المشاريب والسندويتشات الخفيفة التي يعدها طازجة، نظيفة، ليغير كل منهم ريقه قبل ذهابه، أو ليأخذها بعضهم معه كزاد للطريق، إذا كان قيام القطار ليلاً، كان كل منهم يعطيه ما قسم به النصيب، مرة نعم ومرة لا، لم يتوقف عند هذا ليراجع معه الحساب أو ليدقق مع ذاك، هكذا بدأ، وهكذا ظل إلى ذلك اليوم، رغم تغير الظروف واختلاف الأوقات ورحيل من رحل

مع الساعات والقطارات. لم يكن مقيمًا إلا بالاسم والوصف، لكنه دائما لاهث، راحل مع القطارات أو واصل من خلال سائقيها، بعد رحيل والده المفاجئ، مفارقته الحياة بهدوء فوق رصيف المحطة بعد شعوره بإرهاق طارئ، لساعتين أو ثلاث ظن كل من يراه أنه نائم، إلى أن توقف أمامه النبوي عامل البوفيه، وصاح كأنه يكتشف أمرًا خارقًا للعادة:

«أول مرة أشوفك نايم..».

لمس وجنته تراجع زاعقا:

«لا إله إلا الله.. إنا لله وإنا إليه راجعون..».

بعد أسبوع نزل صاحب البيت إلى الغرفة ليخبره بضرورة تسليم المفتاح والذهاب أول الشهر، أي بعد عشرة أيام، إنه في حاجة إلى الغرفة ليضع بها حاجات ضاقت الشقة بها، يبدو أن السبب الحقيقي خشيته من سكنى أعزب في البيت بمفرده، بعد يومين فقط، وقبل ثمانية أيام من انتهاء المهلة، طرق باب صاحب البيت في الثامنة صباحًا، سلمه المفتاح، وطلب منه أن يسامحه لو كان أساء إليه من غير قصد، بدا صاحب البيت متأثرًا، سأله: «لماذا العجلة؟».

قال إن الأمر قضي، وأرض الله واسعة على عبيده، الحقيقة أنه لم يمض بعيدًا، يمكن القول إنه اعتبارًا من ذلك اليوم أصبح جزءا من الاستراحة، بل يمكن القول أنه المقيم الوحيد فيها، الكل عابرون، تمامًا مثل القطارات التي لا تقف إلا لمدد محدودة بالمحطة ثم تفارق الأرصفة، لم يصدر قرار، ولم يتخذ إجراء رسمي، لكن منذ أن سمح رئيس المحطة بنزوله أصبح جزءًا من المكان، اتخذ

ركنا قصيًّا حتى لا يزعج أي إنسان.رغم أنهم أحبوه، عطفوا عليه ورقوا له، بل إنهم جميعًا صاروا إلى اعتماد كامل عليه فيما يتعلق بإيقاظهم، ليس إتقانه إعداد الشاي والقهوة وإعداد الشطائر أهم ما يعنيهم عنده، إنما قدرته على إيقاظ كل منهم في موعد مناسب للتوقيت المحدد لتحرك القطار المسئول عنه.

عبر سنوات متتالية أتقن معرفة مواعيد القيام والوصول، خاصة مواعيد الذهاب، يحفظ رقم القطار، واللحظة المعينة لحركته، لحظات القيام لا تتغير، فالمحطة هنا تعني البداية، ولكن الوصول ربما يتأثر لسبب أو لآخر، طارئ، استثنائي، والحق أن هذا كان أمرًا نادرًا، وقوعه مما يؤرخ به، حركة القطارات حتى الستينيات، بالتحديد حتى اختفاء القطارات البخارية كانت مثل الساعة السويسرية، لا تخل ولا تحيد، ألم أيضا بالسائقين، عرف أسماءهم، بل وأحوالهم، كان يستقبل كلا منهم، فيسأل عن الأبناء بالاسم، ويستفسر عن صحة الزوجة التي توعكت بعد وضع، أو نزلة برد، أو طارئ لم يفصح الزوج عنه، كان يتتبع أخبار الأبناء، أداء امتحاناتهم ، تابع بعضهم من المرحلة الابتدائية إلى التخرج من الجامعة، وعندما كان بعض الآباء يصرون على حضور خطوبة أو دخلة، يقول إنه سيذهب إلى السيدة نفيسة ويدعو هناك بالبركة والتوفيق، كانت السيدة نفيسة مقصده ومأواه، يحرص على حضور مولدها، كل سنة ولمدة ثلاثة أيام يقيم إلى جوار ضريحها يكنسه ويرش الماء حوله ويقوم بسقاية القوم، يقضي وقتًا غير هين يتحدث إليها، يهمس بما لا يعرفه أحد ملصقا جبهته بقضبان المقصورة، يثق أنها تصغي إليه وتسمعه، وتبلغ والده الرسائل التي يشيعها إليه من

خلالها، شاع أمره وعرف الكل أنه من خدامها وأنه من محاسيبها، وبالتالي فإن دعاءه مستجاب هناك عندها، الكل طلب منه الدعاء، من مدير المصلحة إلى أصغر الحمالين أو العطشجية وعمال الدريسة القريبين في الشرابية وعند إمبابة، إذا غاب عن الاستراحة فالكل يعرف أنه راح إلى الست، كان يعرف الأوقات المناسبة التي يمكنه الذهاب خلالها، عندما يطمئن إلى نزول سائقين يعرف قدرتهم على الاستيقاظ بدون الحاجة إليه، عبر هذا العمر كله أصبح عارفًا، عالمًا بعادات كل منهم، حتى من تختلج عيناه بتأثير كابوس أو منام ثقيل، ملم بالوقت اللازم لإفاقة هذا أو ذاك، يختلف الأمر فيما بينهم، كان أحمد العسال ينط من فراشه إلى مقصورة القيادة، كأنه لم يكن نائمًا قط، بينما كان الشاذلي السكندري في حاجة إلى اللمس الذي يمكن أن يصل إلى حد القرص، أو الربت بقوة على الوجنة، ومتابعته حتى يغسل وجهه ويطمئن إلى بدء نزوله السلم. كان السائقون القدامى المتخصصون في الجرارات إنجليزية الصنع يقولون إنهم يتفاءلون به ويطمئنون إلى دقته، لو أغفى فإنه يستيقظ عند الموعد المحدد لإيقاظ من سيحل دوره، لا يحتاج إلى أحد ليوقظه، هو من يوقظ الجميع، حتى في أيام وهنه، إذا لحقته نزلة برد، أو أوجاع غامضة، فإنه يتحامل على نفسه ويسعى إلى من يغط في السبات حتى يتهيأ وينزل راضيًا، مرضيًا، من يسوق القطار يجب أن يكون مستريحًا، منتبها، أرواح الناس أمانة..

قال له مدير المصلحة عند مروره يومًا في زيارة نادرة، وقت أن كانت الاستراحة مفروشة كأفضل الفنادق وأسرتها وثيرة، والستائر وافية.

«داخلك ساعة لا تخطئ..».

تأثر من الإطراء غير المتوقع، حار في الجواب، شرع في الانحناء حتى كاد يقبل يد الرجل الطيب الذي اعتبرت كلماته إشارة لتمتين وضعه، الحقيقة أنه لم يقلق قط، ولم يعل همًا، كان يتلقى في صمت النقود التي يجود بها كل منهم، لا ينظر ولا يحصى ولا يعرف، لم تدركه الحاجة، ولم يلق جحودا من الأجيال الجديدة، صحيح أن الحديث معهم أندر، والكلمات أقل، لكنهم ورثوا عمن سبقوهم احترامه والتبرك به، والثقة فيه، أنه سوف يتدخل في الوقت المناسب، سيجده كل منهم قائمًا عليه، يوقظه برفق، بحنية.

لم يلحظ أن حركته أبطأ، وأن سمعه أثقل، وأنه أصبح ينظر إلى الجميع من تحت إلى فوق وعندما قال له أحدهم:

«خذ بالك يا عم عبد العال..المصلحة ستبيع الاستراحة إلى بنك أجنبي..».

بدا دهشًا، غير مصدق، قال بهدوء:

«القطارات لن تتوقف..».

يوليو ٢٠٠٢

نَفَسَ

«الراجل قعد في البيت».

كثيرًا ما ترددت هذه الكلمات على مسمع من أم محمد، لكنها لم تتخيل قط أنها ستنطق تعبيرا عنها، سواء منها أو من آخرين يخبرون عنها، لم تتصور أن يومًا سيجيء، أن شمسًا ستطلع، فلن يخرج الرجل من البيت، هو الذي قضى عمره منذ أن تزوجها وقبل أن يأتي بها من البلدة، يروح ويجيء، يسعى ولا يكل، لم يوقفه ولم يعطله إلا المرض الشديد، أو سفر الخواجة، شغله يحقق الستر، وسعيه يوفر الرزق، صحيح في حدود، لكن حياتهما على طول كانت مستورة، لم تضطر إلى الميل على هذه الجارة أو تلك للاقتراض أو لتوفير حاجة، الإيجار لم يتأخر تسديده يومًا واحدًا، بل كثيرا ما كان يسعى به إلى أم عطيات صاحبة البيت في حارة بيرجوان لتسديده قبل حلول الشهر، أو سفر العائلة إلى الصعيد، تسديد الإيجار وفاتورة الكهرباء أهم ما يشغله ويحرص عليه، إذا جاءه رزق، إذا وسعها الله عليه لم يكن يأخذ شيئا لنفسه، لم يصرف مليمًا على مزاجه، لم يكن له مزاج، السجائر لم يقربها، رفقة أهل السوء تحاشاها، كل ما تعرض

له من إغراءات أطلعها عليه أولا بأول حتى سعي بعضهن لإغرائه بمدخر أو حلي للزواج، كان في السوق، والناس تروح وتجيء عليه من مختلف الأعمار والطبقات، أثرياء من الزمالك وتجار من وسط البلد والموسكي والخان، بل إن القصر الملكي في عابدين لجأ إليه عندما توقفت ساعة حائط قديمة، أثرية، قيمتها مرتفعة جدًّا، بعد أن بحثوا وتحروا وداخوا السبع دوخات توصلوا إليه، ومن وقتها هو المختص بتصليح هذه الساعة التي لم يعد يوجد من يفهم فيها أو يقدر على استمرار عقاربها في الدوران إلا هو.

ماذا جرى إذن؟

لا تدري..

ماذا حدث؟

لا يمكنها ذكر سبب واحد عن اقتناع، هي نفسها اضطرت إلى الاقتناع عندما يسألها الآخرون:

«عين وصابته..».

لكن أين كانت هذه العين طوال الخمسين سنة التي عاشتها معه على الحلوة والمرة، لم يحد ولم يهن ولم تصدر عنه بادرة ولم يخطئ في حقها، لم يحرمها ولم يحرم العيال من شيء، إذا وسع الله عليه يرجع بما لم تتوقعه، البطيخ الشليان أو التفاح الأمريكاني الذي كان يندر دخوله الحارة وأبو فروة والقشدة الخضراء، أما اللحم فمن أحسن جزار في سوق الخضار في العتبة. كذلك الحمام والبط والأوز، واللبن الطازج من جوار سيدنا الحسين، والحلويات

من محلات الأجانب التي عرفها من الرجل الذي تعلم على يديه وأحبه وعندما هاجر كتب له المحل باسمه وعلمه الأسرار التي لم يطلعه عليها لتفرده بها والخاصة بإصلاح الساعات التي بطل تصنيع مثلها، وكيفية تصليح قطع غيار الساعات السويسرية المعتبرة التي لا يمتلك مثلها إلا باشوات زمان، والأثرياء جدًّا القادرون والهواة المطلعون، كذلك ضبط ساعات العمد والشيوخ التي كانوا يضعونها في جيوب صغيرة دقيقة ويحرصون على إظهار السلاسل الذهبية التي تمسك بها.

قعدته في الدكان تفرح وتشرح، دكان صغير، تكاد جدرانه أن تلمسه لو تحرك فيه، ضيق، مستطيل إلى الداخل، لم تذهب إليه كثيرًا، لكنها صحبته في مناسبات نادرة، عندما كان مضطرا إلى استخراج شهادة من مكتب الصحة لابنهما أحمد قبل تجنيده، طلب منها أن تقعد في الدكان، لا تروح هنا ولا هنا، إذا جاءها زبون تخبره أن أبو أحمد سيرجع بعد ساعة، لكنها لم تكتف بذلك، بل كانت تسأل عن اسم العميل وحاجته بالضبط، وعندما رجع ذكرت له قائمة بمن جاءوا وسألوا عنه، وما طلبوه، وما أخبروا به، قال يومها ضاحكًا:

«انت تنفعي.. الواحد ما يخافش عليك ولا على العيال..».

قالت بسرعة:

«ربنا يخليك يا أبو أحمد ويطول عمرك..».

مجرد ورود الخاطر بإمكانية مرضه كان يبعث الرعب عندها، ماذا يمكنها أن تفعل بدونه، لو تأخر عن موعد رجوعه تأخذها

الظنون وتنال منها الهواجس، لم تعتد منه ذلك، طوال عمره كان منضبطا، تماما كالساعات السويسرية التي أتقن صنعها على أيدي الخواجة توماس الذي اضطر إلى الهجرة من مصر بسرعة بعد الحرب، لكن الأصيل ابن الأصول كتب كل شيء لأبو أحمد، سلمه الدكان والعدة، المفكات والملاقط الصغيرة، المصنوعة يدويا، والعدسات المكبرة التي تلتصق بالعين، فتبرز وتكشف، أكثر من خمسين سنة والحارة تضبط عليه الساعة، عند خروجه اليومي وعند عودته، وعند ذهابه لصلاة الفجر في سيدنا الحسين القريب، لم تتصور أن يومًا سيجيء فيبرك إلى جوارها، ويكف، يتوقف عن الدوران، لكن هو الذي أصلح أعقد الساعات وأندرها حار فيه المشايخ والأطباء وحارت فيه هي، التي تعرف أحواله من تردد أنفاسه أثناء نومه وعدد مرات تقلبه في الفراش، يمكنها تحديد بداية الحال منذ صباح ذلك اليوم الذي قعد فيه مدة أطول من تلك التي اعتادها قبل أن يغادر الفراش، وعندما أطلت من النافذة لتراه لاحظت بطء خطوته.

«كان ماشي بيحدف لورا..».

عندما رجع مبكرا قبل موعده، سألته عما إذا كان يشعر بألم، هل زادت عليه أوجاع الفتق، لكنه لم يواجهها كما اعتاد، لم يضع ملامحه كلها بظاهرها وباطنها في متناولها، لكنه أطرق، حاد عنها، لم تسمع إلا همهمة وأصواتا لم تعتدها منه، أمها كانت تقول دائمًا:

«أنا ما أخافش إلا من الوجع اللي ما أعرفوش قبل كده..».

كل ماخشيته بدأ يظهر لها، بعد أن تقدم بها العمر، وظنت أنه حسن الختام، كثيرا ما خافت في السنين المولية أن يصاب أبو أحمد بمرض يقعده عن الحركة، لكن السنين لم تأت بمثل ذلك، لا خُراج ولا قلب ولا احتاج إلى طبيب حتى، لكن آخر ما تصورت أن يقع له، عاشت لتراه وتعاينه وتشهده، أن يقعد الرجل بدون سبب ظاهر، أن يتباطأ خطوه، ويعاف الأكل، وتقل ساعات نومه.

«أصعب شيء قعدة الرجل في البيت..».

لا تدري متى سمعت هذه الكلمات، ربما من امرأة الحاج نصيف التي اضطرت إلى نزول السوق بعد مرض زوجها، لكن الحاج نصيف كان مرضه واضحا، أقعده الشلل عن إدارة الفرن، فظهرت امرأته لتديره وتشخط في الرجال ويعلو صوتها ناهرًا هذا وناصحًا ذاك، وأصبح لها رهبة والكل يعمل لها حسابا، أما ما لحق بأبو أحمد فلا تفسير له عندها غير العين، عين وصابته، عندما ألحت عليه وهدهدته وأخذته في حضنها كأنه ابنها.

«احك لي، فضفض لي، أنا مش بس مراتك وأم ابنك، أنا صاحبتك.. وحبيبتك وسندك كمان..».

عندما رفع عينيه إليها وقعت عندها رجفة، خضة، صعب على المرأة أن ترى زوجها مكسورًا، مهانًا، كان في مواجهتها تائها، شاردًا، قال لها...

«مش لاقي نفسي..».

بدا لها القول غامضًا، غريبًا، صعبا أن تدركه أن تستوعبه.

«مالك يا اخويا..».

كرر بحزن وكأنه على وشك البكاء:

«مش لاقي نفسي في الشغله دي..».

قالت باستنكار ودهشة وخوف، خشية أن يكون الرجل أصابه مس:

«بعد العمر ده كله يا أبو أحمد..».

وضحت نبرة البكاء في صوته:

«ياريتني كنت اشتغلت حاجة تانية..».

أحاطته بذراعيها، طبطبت عليه، لم تفارقه إلا بعد أن راح في النوم، لم تغير وضعها خشية أن توقظه، أصغت إلى أنفاسه الهادئة، ربما يعود إلى طبيعته بعد أن فضفض لها وباح، لكن ما جرى صباح اليوم التالي بدا غريبا، مفاجئا، إذ اتخذت يده وضعا ثابتا، كأنها تجمدت عند وضع معين، كأنها نقصت مقدارا ما ، اليد التي كانت تصلح أدق وأندر أنواع الساعات، التي لم تتوقف عن در الذهب من بين أناملها، التي جعلتهم يعيشون مستورين، لا يحتاجون إلى أحد، هل تكتب لوحيدها أحمد الذي يعمل سائقًا في الأردن؟ ماذا ستقول له؟ لن تسبب إلا اضطرابه، وستضطره إلى قطع عمله والمجيء في غير موعده.

لا بد أنها عين، أو إحداهن عملت له عملاً أدى به إلى هذا الحال الغريب، بعد أكثر من خمسين سنة يندم لعمله في إصلاح الساعات، يلعن اليوم الذي رأى فيه الخواجة الذي لم ينقطع عن

إرسال البطاقات إليه في أعياد المسلمين والمناسبات التي عاشها في مصر ، خاصة وفاء النيل وشم النسيم، كان يخاطبه أحيانا ثم يقول:

«الله يسامحك يا خواجة توماس..».

تحاول تذكيره بأفضال الخواجة عليه، باهدائه الدكان والعدة قبل سفره إليه، لكنه يغمض عينيه، يلوح بيده اليسرى التي لا تزال قادرة على الحركة، يرجوها أن تكف، ألا تذكر له الساعات أو الدكان، يعجب من صمته طوال هذا العمر على مهنة لم يرض عنها، ولم يجد نفسه فيها!

يوليو ٢٠٠٢

اندثار

أخيرًا.. لا يفصلهم عنها إلا الباب الموصد منذ قرون سحيقة، أختام بادية، غبرة القدم، وتوقع صامت يسري من قطعة الخشب المنحوتة بدقة، المستوية، الناعمة، المرتكزة إلى نقبين، الأول أسفل والثاني أعلى.

يتقدم الأستاذ منحنيًا في الممر المؤدي، أوشك على انتهاء. ببطء وبأيد مدربة تم حفره، بتأنٍ، على مهل، الأبصار كلها تتجه إلى الباب.

لحظة فاصلة يتوق إليها كل من يعمل مثله، لحظة نادرة، قد لا تتكرر، وربما لا يعرفها معظم الباحثين، لحظة جرى تمهيد لها، عمل دءوب، وأيام صعبة في هذه المنطقة النائية، الموغلة في الرمال إلى الغرب، لم يكن الاستدلال إليها سهلا بدون جهود سابقة لباحثين أمضوا سنوات في المنطقة ولم يصلوا إلى شيء.

كل الدلائل تشير إلى أنه سيلقاها وجها لوجه بمجرد فتح هذا الباب ونزع غطاء التابوت، سيقع بصره على القناع الذي يغطي

الوجه الملفوف في الكتان المحكم والقناع الدال، المؤشر على ما كان يومًا، نظراته تصل ما انقطع منذ توالي القرون والحقب بعد أداء الكهنة طقوس فتح الفم، منذ أن لمس كبيرهم الفم بعلامة الحياة ـ عنخ ـ قبل أن تدوي الصيحة:

«انهض..، إنك لست بميت..».

هل خوطبت الأنثى بعبارات مماثلة؟

بأي إيقاع كان النطق؟ أي روائح كانت تعبق الفراغ قبل إغلاقه؟

هل ستنفذ إلى حواسه بقاياها؟

ربما يشم عتاقتها الآن بعد اكتمال الفتح وسفور الموقع عن آخر مكنونه!

نهاية وشيكة لعمل دءوب استمر سنوات من عمره، وتمهيد لا يمكن الإلمام به ممن سبقوه، إنه يحاول جاهدًا إقصاء الخواطر والرؤى والتداعيات التي يثيرها الموقف حتى يفرغ ويصفو تمامًا للحظة المواجهة، الرؤية، الكشف، لايجد لفظًا محددًا يمكنه أن يستكين إليه وأن يدل على حاله.

في الصباح راجع كل ما تم، نقوش الباب نُسخت وصُورت، كذلك المتون المقدسة على جانبي الممر، منها أيقن ما ينتظره وراء الباب، كل الدلائل تؤكد أنه لم يفتح، لم يعبث بالمحتوى منذ إغلاقه ذلك اليوم البعيد، يصعب تسميته أو تحديده من موقع اللحظة الآنية.

لا يدري.. هل سيجد حبلاً مجدولاً يوثق مصراعي الباب موثقًا

بخرطوش يحمل اسمها، تماما مثل ذلك الحبل الذي تطلع إليه كارتر مدركًا أنه أمام الخطوة المؤدية، لكن ثمة فرقا، الحبل الذي رآه الإنجليزي ومساعدوه مده وعقده وختمه كبار الكهنة الذين نقلوا محتويات مقبرة توت عنخ آمون خشية سرقتها بعد اضطراب الأحوال وسريان انتهاك المقدسات، وإقلاق مراقد الراحلين، لهذا كانت المحتويات مكدسة على عجل، بدون ترتيب يليق بوريث عرش الإله حورس، أي أن المرقد تم فضه مرة بعد إغلاقه، لكنه هنا أمام باب لم يفتح قط، يحول بين رقدتها وفراغ الممر المؤدي إلى الخارج.

«نفرت».

إنها الجميلة، من أميرات البيت الكبير، إنها الآتية من بعيد كما يقول أحد ألقابها؟ ألهذا اختارت هذا الموضع المنعزل؟ يكاد يلفظ الوصف الذي صاغه هو.

«المتوحدة..».

لم يقرأه في ألقابها أو توقيعاتها، أتي به هو ليقينه أنه ملائم متوافق معها، لكم يبدو مرقدها منعزلاً، منيع العتبات، جَمْعٌ بمفردها، فليؤجل ما يتوارد عليه إلى لحيظات سيغمض خلالها عينيه ويستعيد ما يمر به الآن، عندئذ ربما يبصر ما لا يراه، ما لا يطلع عليه وربما تبزغ فكرة لا تواتيه في حينه.

انتبه

تطلع، فلن تفض أختامًا لم يقربها أحد قبلك مرتين، تبصر،

لولا الصدفة التي أوحت إليك بمفتتح الطريق المؤدي إلى الناحية لأمضيت عمرك ولذهبت بدون معرفة تلك اللحيظات.

يرفع المصباح، ضوء هادئ، بارد، لا يثيرالحرارة، مناسب للأماكن المغلقة، يثبت يده عند نقطة محددة، يتقدم مساعده خطوة، إنه خلفه تمامًا، يتناول المصباح حتى يتفرغ أستاذه لمعالجة الباب برفق وتأن وحذر.

يطرق الباب، يصغي، الطرقات هذه المرة مختلفة، تسبق الفتح مباشرة، يوحي الصوت بالفراغ المؤطر، يمكنه أن يتصور ملامح القناع الذي يغطي المومياء الملفوفة بالكتان، لطول ما أمعن التفكير وانشغل بها، كأنه قابلها وتطلع إليها، تحدث وسمع منها.

لسبعة أيام استمر تنظيف ما حول الباب بفرشاة ناعمة، تم الكشف عن الحدود التي سيتم التعامل معها، ينحني، يتحسس الحد الغائر، يشفق على الخشب العتيق الذي لم يمسسه بشر منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام وبضع سنين من مقدمة الأداة المصنوعة من الصلب الحاد.

يدس سن الآلة العريض، الحاد، يدفعه متأنيًا، متمهلاً، محاولا ألا يتسرب انفعاله إلى ثبات يده وضمة أصابعه، إنه مستغرق، متمكن الآن، يدفع ضاغطا المقبض، مقاومة يسيرة، يقدر أن السن عبر إلى فراغ، قدر من أصداء الطرقات متانة وسمك الباب، لكنه مفاجأ الآن بالسهولة التي غاص بها مقدم النصل في الحد الفاصل بين الجدار والخشب، ينتصب واقفًا، يضغط مقدمة الأداة من أعلى، المقاومة تحتاج ضغطًا أشد، لكنه ينفذ إلى الفراغ عينه الذي قدره بأسفل.

هل يبدأ الآن؟

إنها الضغطة الحاسمة، يفاجأ بسهولة لم يقدرها. كأن شخصًا خفيًّا يقف وراء الحاجز يساعده باذلاً طاقة تستعصي على الإدراك، يقف تمامًا محدقًا إلى الأمام، يلتفت إلى مساعده، سيسدد هو الضوء إلى الداخل حتى تكتمل الرؤية.

يرفع المصباح، يصبح بمحاذاة كتفه، يتراجع الباب تحت ضغطة يده بيسر، فراغ يتسع له، لا يُمكّن أي شخص خلفه من النظر عبر كتفه، ينتظم مساعدوه ومعاونوه من عمال متخصصين خلفه على امتداد الممر، لكنه عند هذا الحد بمفرده، توقف الباب عن التراجع مفسحًا لفراغ يستوعبه بالكاد.

من يصل إلى هنا لا بد أن يكون وحيدًا، فردا، مفردا، إنه في مواجهة فراغ، لم يحرك المصباح بعد حتى يمكنه الرؤية، ما زال واقفا عند حدود العتمة، تنفذ الرائحة المعتقة، الكامنة إلى أنفه، إلى صدره، يعرف خطورة الهواء المقيم واحتواءه على ما يسبب الهلكة لكن بعد حين مقدر، لكنه لا يعبأ، إنه في مواجهة لحظة فاصلة، إنه على وشك أن يرى، أن يقف على ما طال كمونه ولم يتبق إلا الإسفار.

شيئا فشيئا يغيب عنه ما يحيطه، يتجه تماما إلى ما ينتظر دخوله دائرة إبصاره، كأنه يقف داخل فراغ خاص به، يتحرك فيه، هو فقط لا غير، يعرف مثل هذا الحال، الرغبة في تأجيل اللحظة الدانية التي سيتحقق فيها المأمول، لكنه الآن مأخوذ، مستغرق، متجه إلى ما

ينتظره، إلى رؤية ما تنبأ به، ما جمع من أجله الأدلة، ما بذل صوبه الجهد والوقت وتوقع المأمول.

يرفع المصباح إلى نقطة يمكن للضوء أن يتقدمه ليكشف له الفراغ وما يحوي، لا يدري كيف تبدو ملامحه الآن، لا يراه أحد من المواجهة إلا سموها وجلالها وحضورها الماثل في مواجهته.

ليس قناعًا ما يبدو له، ليس تابوتا مغلقًا، ليست العين التي ترى للراحل المسافر معالم الوجود، إنما هو في مواجهتها تمامًا، ترقد أمامه، مفتوحة العينين، جهيرة النظر، جلية البصر، تحدق صوبه مرتدية كامل ثيابها، منسدل شعرها، أصابع يديها مغطاة بأصابع ذهبية كل منها يحيطه خاتم سيدنو فيما بعد ليحدد النوع والشكل وطبيعة الشكل، إنه في مواجهتها، يدركها بالكلية.

فراشها بيضاوي، طبقات من كتان أبيض شفاف، يحيطها، يفيض من تحتها، يغطي ساقيها، تنبسط متمددة، ممتدة إلى أعلى، ناهضة بقدر، كأنها على وشك أن تهم، أن تشب، أن تبادر، لكنها لا تفعل.

الإقدام منه هو، يتجه جماعه إليها، بكافة ما استوعبه من شوارد وتفاصيل، إنه مدرك تماما، واع لفرادة الحالة، لم يقرأ ولم يسمع ولم يصف من سبقوه حالة كهذه.

إنها مكتملة، مكملة في مواجهته، حاضرة، يتجه إلى الوجه، حاضر غائب، على وشك التبسم، لا يمكنه الإمساك بملامح محددة، غير أن تناسق الملامح مما أذهله، سنوات طويلة يتفحص الرسوم الجدارية. والملامح البادية عبر أوراق البردي والحلي

والصناديق الصغيرة، وقطع الأثاث التي سلمت من عبث الأيدي، لكنه لم ير مثلها، لم تقع عينه على شبيه لها.

لم ير شبيها أو قرينا لها لأنها الحالة الأولى من نوعها، ليس تحنيطا ما يرى. لا يمت الجسد إلى المألوف من المومياوات المحنطة التي تُخفى ملامحها بالكتان، والأربطة.

إنه في مواجهتها، هي. . المحدقة إليه بعينين توشكان على تتبعه إذا حاد عن موقعه، لا يدري أي تصرف يجب أن يبدر عنه، ماذا عليه أن يتبع؟

هل ينحني؟

هل يتقدم؟

هل يحدق في اتجاه ملامحها أم يحاول الإحاطة بالمفردات الباقية؟... باقة الورد التي تبث عطرها المحفوظ، الكامن، ليس بوسعه إلا أن يثبت الضوء، لا يمكنه إلا التملي، أن ينهل مما أتيح له قبل أن يشاركه غريب حتى لو كان من أقرب المقربين.

ضجعتها قيام مستمر، شروع في نهوض، وملامحها حاوية لبدء ابتسامة وتأهب لسؤال ولواح أسى ما. ربما لحظة الانتقال من حال إلى حال.

حضورها تمهيد لحضور لم يسفر عن ملامحه بعد، لذلك تطول وقفته وكأنه يتوقع قيامها، أو صدور ضحكة عنها، أو النطق بلغة لم يسمع إيقاعها قط.

شعرها مصفف، مسدل حول وجهها الذي يمكن وصفه

بالدائري أو الاستطالة، شفتاها منفرجتان إلى حد لا يمكن ملاحظته إلا بالتدقيق، رغم أنها متجهة إلى الأمام، لكنها تدنو من التفاتة محسوبة، إلى يمين.

إلى شمال؟

لا يمكنه التحديد، لا يقين ممكنا عدا أنها أمامه، وثيرة الرقدة، مشعة البهاء القادم من عمق سحيق، ينتبه إلى استيعابه لها مع ثبات نظره، مع توجهه صوب وجهها، لكنه رأى صدرها الناهض، استدارة النهدين، الزهور موضعها فوق البطن، تخفي خموص البطن وانخساف السرة.

يوثق ملامحها في ذاكرته، ما عدا تلك اللحظة الممتدة تكرارا، يستقر الضوء، تشع عيناها صوبه، يوشك لكنه يحجم، عند لحظة معينة يدرك أن ثمة أمرًا يجري.

متى بالضبط؟

ربما لحيظة امتزاج نظراتها بنظره، تلاقي البصرين، تداخلهما.

مؤكد..

يتغير لون الوجه الأصفر المائل إلى حمرة، يخبو ضوء المصباح الذي يعرفه، يحل ضوء آخر يجهل مصدره، لا يقدر على تحديد رؤيته، يميل إلى الأمام لكنه لا يتحرك.

من صفرة مشربة بحمرة إلى قتامة لا يمكنه تحديدها أو معرفتها أو منع اكتمالها، غضون تظهر، جفاف يحل، يتسرب التناسق، والنظر المنبعث من عينيها، وتمتزج ملامحها، يمد يده لكنها لا

تتحرك، يبسط أصابعه لكنها لا تشير، يهم بالنطق غير أن اللفظ لا يخرج، لا يسمع أحد استنجاده وغواثه لإيقاف اكتمال الفناء، تحولها إلى رماد يتهاوى بسرعة كلما أطال التحديق، حتى الكتان الأبيض الحاوي...

مارس ٢٠٠٠

قرطبية

المباني المتقاربة تتخلل الضوء المستقر، الشفاف، القادم من لا مكان، درت حول الميدان وبدأت الطريق الممتد طبقًا لوصفة صاحبي الذي سألته عن مكتبة التسجيلات الموسيقية، من عادتي أن أقتني من كل بلد أنزله موسيقاه الخاصة وما عُرِف عنه من نتاج فنانين، بعضهم ذاع أمره والآخر ينتظر.

واضح أنني نزلت مبكرًا، واجهات المعارض لا تزال مغلقة مع أن الساعة تدنو من العاشرة، يقع الفندق في الجزء الحديث من المدينة، ثمة نُزل في المنطقة القديمة «البيازين». يمكن رؤية قصر الحمراء من نوافذها، بل توجد أخرى في الحدائق المحيطة به، جد قريبة، لكنَّ منظمي المؤتمر اختاروا لنا الإقامة في هذا الفندق النمطي، يتشابه مع أمثاله في مدن شتى، لم يكن لنا خيار.

مقهى صغير، أنيق، ماذا جذبني إليه؟ لماذا توقفت؟ ربما التوافق المدهش بين لوني طلاء الجدران، الأبيض والأزرق السماوي، ربما تراص المقاعد الصغيرة أمام المنضدة المستطيلة المثبتة

إلى الجدار المواجه للفاترينة الزجاجية، تبتسم السيدة الخمسينية تقريبًا، الممتلئة قليلا:

«قهوة باللبن».

منذ سنوات قريبة توقفت تقريبا عن شرب الشاي، استبدلت به القهوة سهلة التحضير الممزوجة باللبن، ربما لسهولة إعدادها، أو لأسفاري العديدة، وتقديم القهوة مع الإفطار، أو لاعتيادي رائحتها القوية، النفاذة التي تذكرني بنواص مألوفة معزولة عن شوارعها، أفشل في تحديد مواقعها والأزمنة التي عرفتها خلالها.

يتحدثن..

متى ولجن المكان؟

متى اتخذن أماكنهن؟

معقول أثناء انتظاري إعداد القهوة ودفع الثمن؟

كيف لم أصغ إلى حوارهن وهن لا يتوقفن؟

ثلاث، متقاربات السن، يبدو أنهن عاملات في المتاجر المجاورة، يتناولن إفطارهن السريع هنا قبل أن يقصدن مقار وظائفهن، أدركتهن في مجملهن لكن كينونتي توجهت صوبها، هي من ترتدي بنطلون الجينز الأزرق الغامق، محكم الارتداء، فلا مسام تفصله عن جسدها المنفلت.

سعى بصري إليها، إلى مركز استدارتها، وعنوانها الدال عليها، مؤخرتها العفية، المتماسكة، الشابة، التكوين كله متصل بها، منبثق

عنها، باتجاه الأرض فرْعا ساقيها وفخذاها المتسقان، لا يمكن التنبؤ بهما إلا من خلال هذا التقبب المقتدر، غير الناقص وغير الزائد فكأنه التمام عينه، إلى أعلى، خصر لولا دقته وامتثاله لما تجسدت تلك الاستدارات المتكوكبة، أما انبساط الظهر وتخدده فيستند إليه أمران، أولهما عنق مغطى بشعر الرأس الناعم الغزير والذي أوحى لي بالملامح، فضلت أن أضفي عليها ما أريد، وألا أشهدها كما هي بالفعل، الثاني صدرها المعادل بإطلالته إلى الأمام ما يبرز إلى الخلف، فكأنهما السؤال والجواب، الاستفهام والرد المرضي، الوافي، المقنع.

على مهل رحت أرشف القهوة الممتزجة بالحليب، متنسمًا رائحتها أكثر من استمتاعي بمذاقها، متمنيًّا ألا ينفد، أحتمي بالحسوة المتمهلة، والوضع الذي أتخذه مع ميلي قليلا إلى الأمام باتجاه اليابسة، مع تسلل بصري إليها، محاولاً الإحاطة، واستيعاب اللحظة وما حوت.

يلتصق القماش الأزرق القطني، خشن المظهر بالتكوين، مبرزًا الحد الفاصل بين الشطرين المتصلين، المنفصلين، المتمم كل منهما للآخر، والمحققين لفرادتهما واندماجهما معًا، لا معنى لأحدهما بدون الآخر، وكأن التمام في الانفصال، وكفاية الاتصال في تحقق الفارق.

حديث، ألفاظ، جمل، حوار صباحي، شفطة من فنجان، قضمة من كعكة، نظرة في مواجهة نظرة، ابتسامة تتخلل، ضحكة يتردد صداها، نظرة إلى الطريق ثم انثناءة إلى الصاحبتين، الثلاث،

غير أن المهيمـن على الحضور كله ذلك التكوين البديع وفيضه المتقن.

امتنان عندي لخروجي الصباحي الباكر، اتخاذي قرار التوجه إلى مكتبة التسجيلات الموسيقية، سلوكي هذا الطريق، دخولي هذا المحل الصغير، المقهى المنمنم، المعد للإفطار السريع، لتلك العادة القديمة بين أهل المدينة، معظمهم يتناولون قهوة الصباح وما تيسر في تلك المطاعم والمقاهي الصغيرة، الموزعة هنا وهناك، كأنها النقلة بين البيت والعمل، امتنان غير منطوق لأنها جاءت، ولأنها مثلت أمامي، ولأنها اتخذت هذا الوضع الذي مكنني منها، ويسرها لي، لنظراتي، ولسائر حواسي.

في الاستدارة حض على النزوع والإقدام على محاولة التمكن، على الإقدام، ولكم شرعت بدون أن يصدر عني فعل، ولكم تقدمت بدون أن أفارق موضعي فوق المقعد المستدير، بدون مسند، حيزي الذي تمركزت فيه ورحت أبث عبره نظراتي وأشيع رسائلي غير المكتوبة.

أعرف استثنائية اللحيظة ونُدرتها وسرعة انقضائها، لهذا اتجه جهدي إلى محاولة الاستيعاب، حتى أتمكن من استعادة الملامح إذا ما خلوت إلى نفسي، إذا ما توحدت بذاتي بعد انقطاعي عن الكافة، أعرف أن الخيار معدوم في الاحتفاظ باللحظات التي تبقى متوهجة في الذاكرة، جلية، سافرة، ولكم أمضيت أوقاتا طويلة في أماكن قصدتها راغبًا أو مرغمًا، وبعد انقضاء الأوقات المرتبطة بها أدهش لما علق عندي، لحظة لم أتوقع مثولها قط، لم أتخيل عند مرورها

بي أو مروريها بها أن تبقى، ولي في ذلك أمثلة شتى، لهذا خشيت انقضاء هذا الصباح بما حوى، بما سفر لي وظهر عندي، لا أعرف ما عداه، لا يعنيني استيقاظي، أو عبوري الميدان، أو ممارستي لهوايتي عند نزول مدينة جديدة أبلغها أول مرة، أستيقظ مبكراً وأنزل لمقابلة بدايات النهار، لكل مدينة مفتتح وخاصية، تختلف عن الأخريات حتى وإن تقارب الجوار، وضاقت المسافات الفاصلة.

لا يعنيني وقتي كله، إن في المدينة الحديثة، أو القديمة، أو ترددي على قصر الحمراء في أوقات مختلفة، صباحًا وظهرًا وليلاً، جميلة تلك الظلال، والنقوش، والأقواس، والقباب، وهذه التراكيب من الخطوط والألوان، والنمنمة في كل موجود، الحجر والرخام والجص والخشب، تركز أمري كله في محاولة الاستيعاب والتمثل مع الامتثال.

عندما قمن معًا، انفرد بصري بها، قوامها الجامح، المتطلع إلى أمام وخلف، تتاح لي الفرصة لرؤيته واقفًا بعد أن أحطت به جالسًا، لعمارة جسدها شرفتان مشرعتان، صدرها وردفها، تتطلع إلى الأمام متوثبة، متأججة كأنها موشكة على انفلات لا يمكن إيقافه.

جرى توتري، واستنفرت سائر مكوناتي، في الغربة بقدر حذري وتوقعي المفاجأة بقدر ما أكون أجرأ، أكثر إقدامًا، ابتعاد المرء عن موطنه مجلبة للخشية والشجاعة أيضًا، يبتعد عن محيطه فتنتفي الحسابات وتتوارى الحواجز أيضًا، هكذا رحت أتطلع إليها غير عابئ بمن معها أو بصاحبة المكان، وعندما خرجن لم يبدر منها أي إشارة أو إيماءة تعكس إدراكها، أو رصدها لاستوفازي وجنوحي

ناحيتها، يبدو أن إحداهن انتبهت إلى وقفتي وحملقتي، أكبرهن عمرًا في تقديري، لكنني لم أنتبه، ولم أعرف نظرتها إلا أثناء استعادتي لما انقضى.

توقفن أمام المحل، لم يدم ذلك إلا بضع لحيظات قصار، ثمان، أومأن إلى بعضهن، تفرقن، اتجهت صاعدة مع الطريق، خرجت لأنفرد بها، هي فقط بكل ما تعنيه من تكوين، غير أنني انثنيت عن عزمي، ذلك أن اقتفاء خطاها لا فائدة تُرجى منه، لا أمل في نقطة أبلغها وتبلغني، توقفت وكلي تطلع، وكأن كل شيء تضام معي، لم ألمح إلا استداراتها أثناء الحركة، خلا الشارع إلا منها، بل قرطبة كلها، واختزلت جهات شتى بلغتها وعرفتها، وكلما تُقت أو شردت أفاجأ بمثول تكوينها المبهر عندي فيكتمل زهوي وإدراكي لتلك النعمة..

مايو ٢٠٠٠

سكن

الباب مفتوح.

أمامه برميل فارغ، عليه آثار جير، مكنسة قديمة من ليف بني، صندوق ورق مقوى لحفظ زجاجات المياه المعدنية، مقبض معدني..

يواصل النزول، البواب عند الطابق الثاني يرتب صحفًا قديمة، يوميًّا يتبادل معه الحديث، إنه مسئول عن إدارة العمارة، يستفسر عما تم بخصوص مصابيح المدخل التي انتهى عمرها الافتراضي واحترق منها اثنان، دفع قيمة استهلاك المياه، شراء مبيد لظهور النمل ليلاً بكثافة..

«من فوق؟».

المالك الغائب وصل في إجازته الصيفية، أرسل ثلاثة عمال لاستكمال الأعمال التي لم تتم العام الماضي، إنه يعمل مدرسًا في بلد عربي، بعد وصوله يظهر عمال البياض والمحارة والكهرباء، يعملون طوال إقامته في مصر، أحيانًا يتوالى الطرق فيضطر إلى

إرسال البواب ليطلب منهم الكف حرصًا على راحة السكان، خاصة إذا تم ذلك بعد الظهر، عندما يستمر إغلاق الباب عدة أيام متتالية يدرك أنه سافر، لم يره إلا مرة واحدة، عندما جاء منذ سنوات لا يذكر عددها بالضبط، بعد أن اشترى الشقة من مالكها السابق الذي لم يره قط، لم يقم بها يومًا واحدًا، اشتراها مغلقة وباعها مغلقة، يقول البواب إن كل شيء تم على الورق، لم يسكنها أحد منذ بناء العمارة، تضاعف سعرها، في أسبوع واحد تفرج عليها وتفقدها ستة أو سبعة، بعضهم تفحصها جيدًا، تطلعوا من خلال النوافذ واختبروا متانة الجدران والأدوات الصحية، ثم انصرفوا ولم يرجعوا، لكن المدرس اشتراها على الورق في مكتب السمسار، عاين تصميمها ورضي بمساحتها، أولاها عناية وأنفق بسخاء، غيّر وبدل، استكمل أمورًا ناقصة، في كل سنة يجيء خلال الصيف، يقيم في شقته القديمة ناحية دير الملاك، متزوج وعنده أولاد، كم أعمارهم؟ كم عددهم؟ لا يدري بالضبط!

مع وصوله يظهر مقاول البياض أو السباكة أو الكهرباء، يصحبه العمال، أول سنة عملوا بهمة لتغيير البلاط، استبدلوا بالأصلي الأبيض آخر سماوي الزرقة، لكن في العام التالي انتزعوا القديم واستبدلوا به آخر أصغر حجمًا به نقوش عربية الطراز، في هذه المرة عملوا ليلاً ونهارًا، تناوبت ورديتان، الأولى من الثامنة إلى الثامنة والثانية طوال الليل، الحق أنهم التزموا لكن مرة واحدة علت ضجة، فطلع إليهم ساكن الطابق الرابع، طلب بهدوء أن يكفوا حتى يمكن لابنه النوم الذي سيؤدي الامتحان صباح اليوم التالي،

لم يجادلوه، استجابوا ولم تفلت إلا طرقتان فقط بعد أذان الفجر سرعان ما تلاشتا.

كانوا يصعدون وينزلون بالمواد والمؤن وبقايا البلاط المنتزع، يحافظون على الهدوء ويتحركون بسرعة، بعد أن فرغوا توقع البواب والسكان المقيمون الذين يراقبون ويلحظون من بعيد مظهرين اللا مبالاة قدوم المدرس، لكنه لم يأت، لم يظهر، قال البواب إنه علم بنية سيادته في العودة النهائية والانتقال من السكن القديم إلى الشقة لكن ظروفًا جدت اضطرته إلى السعي لتجديد العقد سنة أخرى، لم يظهر أي شخص إلا بعد مرور عام عندما جاء متخصصون في السباكة، هدموا دورة المياه الصغرى وضموها إلى المطبخ الذي أصبح أكثر اتساعا، شجع هذا قاطن الشقة الثانية بالطابق الأول فأجرى التعديل عينه، وزاد بتبليط الجدران، بنوعية ذات ألوان زاهية تنتجها شركة تعلن كثيرًا في التليفزيون.

هذا العام جاء عمال الكهرباء أولا، أجروا تعديلات في التوصيلات الخارجية والداخلية، استبدلوا بالأسلاك الرفيعة أخرى غليظة، كما جرى تركيب عداد إضافي من النوع الذي يتحمل الضغط العالي وهذا نوع لا يصرح باستخدامه إلا بعد معاينة.

في اليوم التالي قال له البواب إنه سيتم تركيب أربعة أجهزة تكييف كبيرة بحيث يتم تكييف الشقة كلها حتى المطبخ، مهندس الشركة جاء وعاين، يقتضي الأمر هدم أجزاء من الجدران، ويقتضي ذلك حذرًا، خاصة أن بعض الفتحات ناحية مكان انتظار العربات.

بعد الظهر رأى النوافذ كلها مفتوحة، عند مروره صاعدًا لمح عبر الباب المفتوح عددًا من عمال يرتدون زيًّا موحدًا، أخضر اللون وأحذية بيضاء، وقبعات من بلاستيك، يتحركون بهدوء، بدوا مختلفين عن الذين ظهروا خلال السنوات السابقة، يمسك بعضهم أدوات متطورة، تمكنوا من إحداث فتحات في الجدران وانتزاع أجزاء من الجدران السميكة بدون سقوط طوبة واحدة.

في اليوم التالي رأى الأجهزة معلقة إلى حوامل معدنية نحيلة، بادية الهشاشة بالقياس إلى حجم ما يستقر فوقها، كيف رفعوا هذه الأحجام؟ كيف تم تثبيتها خلال تلك الفترة القصيرة التي لم تتجاوز يومين، لم يشأ الاستفسار من البواب حتى لايبدو فضوليًّا، متطفلا على أحوال آخرين، عندما أطل من النافذة، رأى جهازين من الأربعة، كلاهما مغطى بقماش صناعي شفاف، ربما لحمايته من التراب المتساقط عبر الفراغات.

قال لزوجته إن تركيب الأجهزة خطوة أخيرة، سيظهر المدرس وأسرته بين لحظة وأخرى، هذا ما يؤكده البواب أيضًا الذي أوتي قدرة على معرفة أحوال السكان، المقيمين أو الذين لم يحلوا بعد، قالت إن العمل لم يتوقف طوال السنوات الماضية، لكن لم يأت أحد، دائما ينشطون في إجازات الصيف، ثم يظل الباب مغلقًا سنة كاملة.

لكن يبدو أن إجابة زوجته لم تكن دقيقة، بعد يومين عند عودته ليلاً لمح أضواء عبر النوافذ المغلقة، كما تردد أزيز الأجهزة الأربعة،

أطل من النافذة، يتزايد الصوت المنتظم، الخافت، باستطاعته الإصغاء إلى نقلات المحركات، حتى الآن لم ير المدرس، لا بد أنه سيلتقي به صدفة عند نزوله أو طلوعه.

«هل رجع نهائيًا أم أنه يقضي الإجازة؟».

يتطلع البواب إليه دهشًا، كأنه يستفسر عمن يتحدث، يقول: «سافر مع العائلة بعد تركيب التكييف بيومين، هذه السنة لم يقض الإجازة كلها.. لم يجد الوقت ليرى ما تم تركيبه..».

يسكت البواب لحظات ثم يقول إن الأمر مثل كل سنة، لكن يبدو أن الأوان يقترب.

أي أوان؟.. أي اقتراب؟ وهذه الأجهزة العاملة؟

يقول البواب إنه طلب ذلك من العمال حتى يوهم بوجوده وأسرته، يرفع رأسه إلى أعلى، الأزيز الخافت، الهادئ، المستقر، المستمر ليلاً ونهارًا، تلك الأجهزة الحديثة لا تصدر أصواتا مرتفعة مثل القديمة، تمامًا كما تؤكد الفتيات الجميلات المعلنات عنها في التليفزيون، يتوقف أمام الباب الموصد، يطيل الإصغاء.

أكتوبر ٢٠٠٠

سوزي..

لا أهدأ إلا إذا ركنت..

أظل متقلقلاً، هائمًا حتى أهتدي وآلف، عندئذ تتوطد العلاقة، وتبدأ الصلة، وتنشأ العادة، لم أعرف ذلك عني إلا بعد طول ترحال، وكثرة تنقل، وتعدد مرات النزول لمدن قصية، بعضها أقمت فيه يومًا أو بعض يوم، ومنها من طال عليّ فيه الأمد، لا يعلق عندي إلا ما قصدت فيه موضعا أتخذ منه مرقبًا ومقامًا.

عندما نزلت مدينة شلب الأندلسية القديمة، وتُعرف الآن بسيلفش غرب البرتغال، أقمت بالفندق الذي آويت إليه من قبل، منذ عام ونصف تقريبًا، قبل سفري أودعت أهلي وزملائي أرقام هواتفه وعنوانه، بناء مفرد غالب عليه اللون الأحمر القاتم، يقع في مواجهة القلعة القديمة التي ضمت يومًا قصر التراجيب والذي عاش فيه المعتمد بن عباد، الملك الشاعر الشهير، وجال فيه صاحبه الوزير ابن عمار قبل أن يقع بينهما ما وقع، وهذا مما يطول الحديث فيه، اسمه فندق جبل المسلمين، وبقدر انفصاله عن المدينة بقدر انتفاء احتوائي لها رغم تعدد جولاتي بها، سواء إلى مبنى البلدية

الذي أقيمت في إحدى قاعاته جلسات المؤتمر الأول، أو مسرح القلعة، والمطاعم التي اعتدنا ارتيادها في زيارتي تلك، بقيت مسافة قائمة، فاصلة، ولم تكن إقامتي به وتطلعي من شرفاته إلى شلب في مجملها على سفح المرتفع، أو تطلعي إلى ما قبل الغروب وما بعده، تلك الألوان القانية، الشفيفة التي لم أعاين مثلها في المواضع الأخرى التي عرفتها وتطلعت منها إلى نهايات النهار، لم تكن أوقاتي به إلا كمثل قادم نصب خيمته وأقام خارج المدينة التي جاء إليها من بعيد، غير أنه لم يدخلها وبقي متقلقلاً، متوجسًا، يترقب.. أربعة أيام مضت، ألتزم برنامج الندوات واللقاءات، وفي أوقات الفراغ أخرج مع الصحب إلى هنا أو هناك، ما تبقى ثلاثة أيام، أطير بعدها إلى العاصمة لشبونة من مدينة فارو التي تقع على مسافة سبعين كيلو مترا تقريبًا، ثم أبدأ رحلة العودة إلى مصر.

في ذلك القصر توقفت في البهو المؤدي إلى غرفة المحاضرات، كنت أتحدث إلى مصري مقيم منذ ثلاثين عامًا، مسيحي جاء في بعثة، أحب برتغالية واستقر، لا يغير مصير الإنسان إلا امرأة، هكذا قلت له فابتسم وقال إنه كان يود لو يدعوني إلى بيته، غير أنني تحدثت بقصر الوقت وتمنيت ذلك في فرصة قادمة، قلت ذلك وأنا في شك من أمري، فظروف مجيئي مرة أخرى نادرة، كما أنني عانيت طول الرحلة ومرات تبديل الطائرة، وكلها أمور مُقْيدة، محبطة، هكذا بدا لي الأمر في حينه، بعد لحيظات صمت، قلت:

«ألا يوجد مكان يقدم البيرة البلجيكي هنا..».

بدا عليه دهشة، فلم يوح سياق الحديث بما يمكن أن يؤدي إلى سؤالي.

«ولماذا البلجيكي بالذات؟».

قلت: إنني أفضل بعض أنواعها النادرة، غير المشهورة، لكنها قوية التأثير، تصنع من مواد طبيعية في أديرة قديمة، وكمياتها قليلة، لذلك يندر وجودها إلا في أماكن متخصصة في تقديم البيرة، أو مطاعم بلجيكية، لم أقل له إن علاقتي بالشراب تبدأ بمجرد إقلاع الطائرة، وإنني أفضل النبيذ بأنواعه، الأحمر والأبيض والوردي، والبيرة في مصر لم نعرف إلا نوعًا واحدًا شهيرًا ألماني الأصل، لكنني منذ سنوات نزلت مدينة بلجيكية صغيرة اسمها خنت، جئت إليها من هولندة لرؤية معرض لفنان أحب أعماله وأطيل النظر إلى صورها المطبوعة في كتب عدة أحتفظ بها، تولوز لوتريك، لم أمكث إلا سويعات معدودات، أمضيت منها نصف ساعة في مطعم صيني لأتناول غدائي، لفت نظري في قائمة المشروبات أنواع نادرة لم أسمع بها من قبل، قوية، تتجاوز نسبة الكحول في بعضها النبيذ الجيد، طلبت أحدها، زجاجة صغيرة، نحيلة، ملصق أصفر عتيق يشير إلى صناعتها من مواد طبيعية، وحفظها وتعبئتها في دير عتيق بقرية منحت اسمها لهذا النوع، عندما رشفته متمهلاً، أدركت إشرافي على أفق لا يمكنني تحديده، تقت إلى طلب نوع آخر للتذوق والتجربة، لكنني خشيت تقلقل اتزاني خاصة أنني غريب تمامًا، لا أعرف أي إنسان في تلك المدينة الصغيرة، لو جرى لي شيء ما فالعون صعب، تنتابني هواجس التعب المفاجئ، أو وقوع طارئ ما، كأن تصطدم بي سيارة أو أتعرض لعدوان ما، يقوى عليّ

ذلك عند عبوري المطارات التي أبدل فيها مسارات الرحيل، أو وجودي في أرض لا أعرف فيها شخصًا بعينه، ما البال إذن وهذا الشراب المثقل بالعتاقة يسري بطيئا، متئدا، فيبطئ زمني، ويباعد ما بيني وبين الموجودات، هنا لا بد من توضيح، فشربي للبيرة أو النبيذ مرتبط عندي بالترحال. وبمجرد عودتي إلى دياري أكف فكأني لم أعرف ذلك قط، ليس عن خشية أو التظاهر بعفة، إنما لانتفاء الظرف المواتي.

منذ تجرعي أول حسوة في خنت، صرت أستفسر كلما نزلت مدينة، أحيانًا أوفق وأخرى لا أهتدي، لا أدري، لماذا استفسرت، وهل خطر ببالي أي إمكانية للعثور على مطعم أو بار يقدم تلك الأنواع النادرة، خطر لي ذلك فنطقت أملاً في العثور على تلك الأنواع النادرة، الخاصة والتي تعد بالنسبة لي اكتشافًا لما أجهل، لا أدري هل قصدت بسؤالي الوصول إلى مكان آلفه وأعتاده ويكون منطلقي إلى صلة وطيدة بالمدينة، تبدأ ولا تنتهي بمغادرتها، حتى وإن ترسخ يقيني باستحالة العودة، وانتفاء الرجعى.

في عصر اليوم التالي، قبل دخولي إلى القاعة الرئيسية، فوجئت بصاحبي المقيم يقول مبتسمًا:

«وجدت ما تريده..».

الحق أنني نسيت ما طلبته أمس، ليس لتمكن ذلك العارض المتصاعد عبر السنوات الأخيرة، والمتمثل في غلبة المحو على كثير مما يمر بي أو أحتفظ به في ذاكرتي، إنما لطرحي الأمر صدفة، وبدون ترتيب أو تعمد مسبق.

«سوزي تقدم البيرة البلجيكي..».

قال إنه بار ومطعم للمأكولات الخفيفة ومقهى، جد قريب من هنا، بالضبط على مسيرة خمس أو ست دقائق، على نفس الطريق المؤدي إلى الفندق،والذي نعبره يوميًّا، اللافتة زرقاء، واضحة جدًّا.

قبل أن أتقدم للجلوس تحت إحدى المظلات الأنيقة المرتفعة فوق موائد مستديرة تحيطها مقاعد من خيزران عليها حشايا مستديرة وثيرة، غير سميكة، رحت أتطلع إلى المكان، كان ممكنًا أن أرحل ولا أكتشفه، كيف لم أستدل عليه، رغم مروري به يوميًّا أكثر من مرة، للوصول إلى المدينة أو قاعة العرض لا بد من عبور القنطرة المقامة فوق نهير صغير، على الناحية الأخرى الفندق، وجبل المسلمين كما يسمى حتى الآن.

المقهى صغير، ثلاث درجات تؤدي إلى الباب الضيق المفضى إلى الداخل حيث خمس أو ست موائد، يبدو أنه في الأصل حجرة تمت إلى شقة، تم تحويلها إلى مطعم أو بار أو مقهى، فضلت الوصف الأخير لأنه أشمل طبقًا للمفهوم الأوربي، في المقهى نجد الطعام والشراب الساخن من قهوة وشاي وخمور شتى، قرب المدخل سبورة سوداء كتب عليها بلغات ثلاث، البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، طبق اليوم، وصفه وسعره، لم أهتم، فلم أقصد المكان للأكل، إنما لشرب البيرة التي لا تتاح لي إلا خلال أسفاري، فوق منضدة صغيرة رأيت زجاجة صغيرة، وكل زجاجة أنثوية المنظر والحضور عندي، تلك قصيرة، غليظة، قصيرة العنق، نوع لم أعرفه من قبل، معروضة

باعتبارها بيرة اليوم، هذا يعني تخفيض حوالي عشرة في المائة من سعرها المكتوب مرتين قبل وبعد، على بروز يحف ويحدد نافذة وحيدة رصت زجاجات فارغة، تعرفت منها على أربع تذوقتها في زيارتي الوحيدة لخنت، وأثناء إقامتي في باريس، التي آويت فيها بعد سنوات طوال إلى ركن عتيق في شارع راسين بالحي اللاتيني، مطعم فسيح من طابقين، يقدم الغداء والعشاء في المواعيد المعتادة، ويستمر مفتوحًا عند العصر كصالون للشاي، ولتقديم تلك الأنواع التي تخفف ثقل ارتكازي إلى داخلي، وتؤمن استغراقي وتسهم في شطحي، إنه مكاني الذي آوي إليه كلما جئت إلى باريس، لم أعرفه إلا بعد حوالي عقدين من الزمن، تمامًا كمقهى الفيشاوي في القاهرة القديمة، ومقهى باب الوزير المطل على الطريق المؤدي من ميدان القلعة إلى باب المتولي، ومقهى سافوي في المنيا، ومقهى فاروق في الإسكندرية، عندما آوي إلى ركن وثير أختار موضعًا فيه، في الفيشاوي على سبيل المثال أقصد المقعد المواجه لمخرج المقهى ناحية أزقة خان الخليلي، حيث ركن إعداد المشاريب والنراجيل، أخشى دائمًا ألا أجده شاغرًا، أسكن عندما أجده خاويًا، وألجأ مضطرًا إلى مكان قريب موصيًا النادل أن يخبرني بمجرد مغادرة من يشغله، لم أعد بحاجة مع الوقت إلى مثل ذلك، إذ أصبحوا يعرفون عاداتي وما أفضله ليس في الفيشاوي فقط، إنما في مقهى فاروق، وفي ذلك المطعم العتيق بشارع راسين، المكان الأخص عندي فيه ذلك المواجه للبار العريض والحافل بأنواع من شتى الجهات، أما البيرة المختصة فتتوسط العرض لأن المطعم يقدم المأكولات البلجيكية التي لم أعتدها ولم أتذوقها، لا قيمة للموضع بدون البشر، لذلك

يساعدني قدومي مرارًا وإبدائي الود تجاه هذا أو ذاك على توطيد الصلة، كان العاملون في مطعم راسين البلجيكي يقبلون عليّ لحظة ظهوري، يبدون الود، وبعضهم يقبلني مقتديا بعاداتنا، أما جمال الجزائري الأصل فكان يخبرني بمواعيد عمله حتى أتواجد فيبدي لي خصوصية الخدمة، ويتوقف إلى جواري في ذهابه ومجيئه لينطق بعض الألفاظ بالعربية وأصححها له، كان أصله من القبائل، يفيض ودًا وبشرًا، وما أدهشني أن تهلله عند قدومي مشابه تمامًا لما يبديه عبده أقدم العاملين في مقهى الفيشاوي والذي تجاوز السبعين، وما زال يأمل في تأجير بوفيه بإحدى المصالح الحكومية يقدم فيه الشاي والقهوة. منذ ربع قرن يحاول، لكن الموضوع أصعب مما يتصور، ليس لديه المبلغ الذي لا بد من دفعه لتسهيل اختياره بين المتقدمين، تذكرت ابتسامته عندما اخترت مقعدًا قريبًا من الجدار، يمكنني من خلاله رؤية الجالسين والطريق والفندق والقنطرة وألوان الغروب.

توقفت أمامي السيدة النحيلة، شاحبة، وجهها أقرب إلى الاستطالة، ابتسمت مشيرا إلى بيرة اليوم، فلأجربها أولاً، ثم أتبعها بأول نوع تعرفت إليه في خنت، ثم أختار الثالث من تلك الزجاجات المرصوصة، كتبت في دفتر صغير ما طلبت، عادت بالزجاجة القصيرة، الغليظة، بحركة مدربة، أمالت الكأس التي كانت تحمل اسم البيرة، كلمة معناها قريب من القلعة، كانت بيرة سوداء، بطعمها مس من حلو، لم تستطع أن تحل مكان النوع الأول الأشقر والذي كان اسمه يعني «الثلاثي». تقريبًا، أما البيرة المسماة بالشيطان فلم تكن إلا اسما على مسمى.

يكفي ذلك، يتمهل حضوري، ويعمق نفاذي إلى لحيظات ما

قبل الغروب، قررت أن أعود بعد تناول العشاء الذي تحدد مكانه في مطعم قريب من القلعة، لا أعرف الطريقَ إليه، ستصحبنا مديرة المركز، سننطلق من الفندق، قلت للسيدة النحيلة:

«المكان لطيف..».

«شكرًا..».

أومأت محييا ، في العاشرة والنصف عدت مع صاحب حميم، تختلف القعدة من وقت إلى آخر، فما يكون عليه المكان في الظهيرة، يصبح مغايرًا عند العصر، كذلك ليلاً، الرصيف خال، لا أثر للمظلات والمقاعد، لكن الباب مفتوح، صعدت الدرج، رأيت السيدة تجلس إلى جوار رجل يرتدي بنطلونًا قصيرًا، يشاهدان التليفزيُون، جلسة عائلية، أومأت محييًا، أشار الرجل بيديه، ما يعني أن المكان مغلق، العمل انتهى، طلبت شراء زجاجات بيرة، هز رأسه، غير ممكن، تطلعت إلى الرصيف، إلى الزجاجات الفارغة المرصوصة فوق الإفريز الحجري البارز، عدت إلى الفندق سيرا على قدمي، عبرت القنطرة الواصلة بين ضفتي النُّهير الصغير، قاعة الاستقبال فارغة، لا أحد، لم يعد للبيرة الخفيفة، ذهبية اللون، الشائعة، قبول عندي، أقبلت عليها قبل أن أكتشف سوزي، لو أن المكان مفتوح، متاح، لأمضيت السهرة هناك، الطقس حان، والقعدة مواجهة للجبل، والنفر قليل، والشراب نادر، المدينة هادئة محدودة، أبرز ما فيها القلعة بأسوارها الحمراء، وخزانات المياه العتيقة، وبقايا القاعات، منها أتطلع إلى السهل وإلى بعض المباني التي يمكنني تحديدها، أنظر إلى ما يحيط به بصري بعيون

الأسلاف العرب الذين أقاموا وسيّروا الأمور، ورحل معظمهم، وذاب من بقي، لم يتبق منهم إلا علامات في العمارة آخر ما يبقى من الإنسان، وعادات وكلمات استمرت في اللغة تحتاج إلى متخصصين للاستدلال عليها واستيعابها، آويت إلى غرفتي مبكرًا، أمضيت وقتًا في تقليب محطات التليفزيون، ثم بدأت اقترابي العسر من النوم، في الصباح خرجت من الفندق في الحادية عشرة، كان رفاق الرحلة، والأصدقاء من البرتغاليين عرفوا باكتشافي لسوزي، صار الأمر موضوعًا للمداعبة ولم أفصح لهم عن خيبة مقصدي ليلة أمس، عبرت القنطرة والشمس قوية، لأشعتها حدة تستدعي عندي شمس الجنوب في الصعيد الذي وُلدت به.

وقفت محبطًا للمرة الثانية أمام المحل المغلق، والرصيف الخالي من المقاعد والمظلات، لا بد أن الوقت ما زال مبكرًا، لكن جميع المحلات المجاورة مفتوحة، المعرض الذي يبيع الهدايا التذكارية، والمطاعم، والمقاهي، أمضيت حوالي ساعة في التجوال عبر الأزقة الضيقة والشوارع المبلطة بالحجر، بسرعة أعود إلى النقطة التي بدأت منها، لا بد أن كل شيء معد الآن لاستقبال الزبائن، الغداء يبدأ هنا مبكرًا في الثانية عشرة، و «سوزي» يقدم وجبات خفيفة.

توقفت، ما زال المكان مغلقًا، تطلعت إلى الباب ، من خلال النافذة لمحت تكدس المظلات والمقاعد، ما أشاهده لا ينبئ بقرب وشيك، لمحت سبورة صغيرة، حتى أبرر وقفتي، اقتربت لأقرأ ما كتب عليها:

«الإجازة يوم الخميس وبعد ظهر السبت والأحد..».

الخميس! بعد ظهر السبت! الأحد كله..

لم أعرف مكانًا مثل سوزي، لماذا الخميس؟ وكيف مساء السبت؟ ليلة العطلة الأسبوعية، كذلك الأحد، معظم المطاعم والبارات مفتوحة يوم العطلة، وبعضها يغلق الاثنين، هذا وضع فريد، ربما يرتبط الأمر بظروف الرجل والمرأة النحيلة التي قدمت لي البيرة القوية وأمالت الكوب وعلى مهل جميل راحت تصب الزجاجة بحيث تكونت رغوة قليلة جدًّا، بعد أن أبديت إعجابي وارتياحي، أقدمت على الاستفسار الذي يسهل اتصال الحديث، والذي نبدأ به عادة في مصر الحوار مع من نجهلهم..

«إنت من سيلفش..».

ضحكت منغمة إجابتها:

«لا.. أنا أيرلندية وزوجي بولندي..».

بقدر ما أبدت من لطف بقدر ما بدت غير مشجعة لاستمرار الحديث، أو قبول إمعاني في الاستفسار، لم أعرف اسمها، ولا اسم الرجل الذي لم أره إلا في الليل عندما رفض بيع زجاجات البيرة لي، وكان يرتدي بنطلونًا قصيرًا ويحدثني أثناء تطلعه إلى التليفزيون، كل ما عرفته هنا أطلقت عليه سوزي، المرأة، المظلة، المقعد، أنواع البيرة من شقراء إلى سوداء إلى بنية قاتمة، إلى أربع شابات إحداهن ذات قوام مذهل، راقني التطلع إليه، أذكرها باسم سوزي، كل من رأيته هنا سوزي، عدت في الظهيرة الحارة كمدًا،

سأبدأ رحلة العودة غدًا في الحادية عشرة إلى مطار مدينة فارو، ومن هناك بالطيران الداخلي إلى لشبونة، ثم إلى القاهرة، الوقت المتاح قصير جدًّا، وليس من المعقول أن أبدأ سفري بشرب بيرة قوية، ثم إن الشرب ليس هدفًا في حد ذاته، إنه الجلوس والتأمل، وقضاء الوقت في الإمعان داخل الوقت المنقضي مني، في المساء أبدى مدير المعهد المصري في مدريد اقتراحًا، قال إنه سيصحب صديقًا عزيزًا بالسيارة إلى لشبونة، لماذا لا أسافر معهم فأختصر مرحلة الطيران الداخلي، في الوقت متسع، موعد إقلاع الطائرة المصرية السادسة بعد الظهر، الطريق جيد وممتع، بعد ثلاث ساعات أتجه إلى المطار مباشرة لأقلع، الوقت أقصر من السفر إلى فارو وانتظار الطائرة، وهناك احتمالات التأخير.

ـ متى نتحرك؟

ـ في التاسعة.

بدا الاقتراح معقولاً، كما سيتاح لي رؤية البلاد من الجنوب إلى العاصمة في الشمال، من الطائرة تتساوى المدن والقرى ولا نتحقق من شيء، في التاسعة والربع تحركنا من أمام الفندق، توقفت لحيظات أتأمل المكان الذي أمضيت فيه خمس ليال، ولم أكن واثقًا من عودتي إليه مرة أخرى، بل إنني كنت على يقين من أنني لن أبلغ تلك الديار مرة أخرى، ليس لقلة الفرص المتاحة، إنما لبعد الشقة، وتعدد المراحل مع التقدم في العمر والوهن الساري..

عندما عبرنا القنطرة اتجهت السيارة يمينًا، لأول مرة أسلك هذا الطريق الذي سيمضي عبر عدة قرى قبل أن نبدأ الطريق السريع، الممهد، المتجه مباشرة إلى لشبونة، التفت لأودع بالنظر..

«سوزي فاتحة..».

المظلات فوق الرصيف، المقاعد، الباب مفتوحًا، لمحت رجلاً وامرأة، الرجل يرتدي قبعة ونظارة، والمرأة ترتدي قميصا ذا حمالات، عارية الذراعين، قال صاحبي:

«تأخرنا قليلاً، والطريق..».

قلت مرددًا:

«أعرف.. أعرف..».

أكتوبر ٢٠٠١

صفاء

طلب مني الانتظار حتى يأتي من سيصحبني إلى الغرفة الصغيرة المخصصة لأخذ العينات فتمنيت أن تكون هي، لا أذكر بالضبط اسمها، صفاء، صفية، لكنها ماثلة عندي لا تزال بهدوئها المبلسم، بعينيها اللتين تنزحان من يَم آمن، جلست في نهاية القاعة ممسكا بكتاب لأمضي الوقت الفاصل بين العينة الأولى والثانية، ساعتان بالضبط، لا أكثر ولا أقل بدءا من تناول الإفطار، داخل مظروف أبيض شطيرتان بالجبن، اختصارًا للوقت الذي سأقطعه حتى بلوغي المقهى الإفرنجي الذي يقع على مسيرة عشر دقائق من المبنى حيث مكاتب الأطباء، ومعامل التحليل والأشعة، وقسطرة القلب، أرقب المرضى، بعضهم من أقطار عربية، من الريف، تمضي الخطوات بنظام، بين الحين والحين تخرج إحدى الممرضات لتنادي اسمًا فيلبي صاحبه.

دافعي لرؤيتها مغاير، ليس نزوع رجل إلى أنثى، إنما تلمسًا لدفء غامض وبث هادئ غمرني المرة الأولى بفيض فأيقنت من دخولي بحر الهدوء والوفاء، ليتني أفضيت إليها بما مرَّ بي عند

جلوسي أمامها، مقدمات ركبتي كل منا تكاد تتلامس، عيناها تذيعان الطمأنينة والدعة، تأتيان بالسكينة المفتقدة والسلوى المنجية، كأنها خُلقت لتثبت الهدوء والراحة في قلوب المرضى، تؤدي بتلقائية، لا تفتعل العناية، كأني أول مرضاها، كأنها تبدأ يومها معي، مع ثقتي أنها قضت أمور العديدين قبلي، نطقها وثير، مدثر بابتسامة، جزء من تكوين ملامحها، قصيرة كأوقات الراحة، ممتلئة بغير إفراط، ناهضة إلى أعلى مع أن كتفيها تتخذان وضع الرضاع، كأنها ستهم في لحظة مباغتة، تبرز الثدي الأيمن تلقمه طفلا غير مرئي يستدل على الكون برائحتها وصوتها وأمور أخرى لا أعرفها.

ماذا.. هل يحتاج المرء إلى طلة أمومية وهو قاب قوسين أو أدنى من الغروب؟ أم لطول السعي منفردًا بعد سفر أمي إلى هناك، هذا الفهم الصامت، الإدراك لما يعتمل في الأغوار بدون حوار، بلا أي لفظ، البذل بدون انتظار مقابل، رغم طول المدة إلا أن هبة مفاجئة تعبرني، محملة بالحنين إلى لحظات أمومية غاربة، لكن لصفاء أو صفية تلك حضورا تتداخل فيه عوامل شتى، طلة عينيها، نقاء تعابيرها، هل أصف ما بداخلي؟ أم أستوحي منها؟

لا أدري، لكنني خلال السنوات الأخيرة أستنتج الكثير من العابر، المؤقت، أو ما يفصلني عنه مسافة، فكأن حواري معي وبحثي فيّ، أعود سيرتي الأولى، زمن مراهقتي وفتوتي، عندما أحببت من طرف واحد، لكم عانيت من أجلهن! ابتعدت ونأين عن محيط بصري ومكاني، لم يصلني منهن، ولم يعرفن عني، خلال الحقبة المولية أتطلع إلى من يعبرن حواسي، كأني راكب داخل قطار بدأ

يتحرك عند لمح من يخيل إليه أنه يبحث عنها زمنًا، فيقضي بقية الرحلة متخيلا ما كان يمكن أن يكون وما لم يكن، ألم أخصص دفترا دونت فيه بعضا من تلك الأحوال، أطيل التحديق والتقليب بالمخيلة لكنني موغل في كمون!

آه.. ليست هي.

من تنادي اسمي نحيلة، طويلة،سمراء، ترتدي المعطف الأبيض، مثبت إليه بطاقة صغيرة مكتوب اسمها، لم أهتم، لم أعن بقراءته، تبعتها إلى الغرفة الصغيرة، هي هي، عين المكان، المساحة التي احتوتني بصحبة صفاء أو صفية، كيف يختلط عليّ اسمها؟ النسيان من علامات الحقبة.

لم تسألني عن عدد ساعات الصيام كما فعلت صفاء أو صفية، تقدم على إشهار الحقنة فورًا، تضعها فوق المنضدة، لم أدعها تطلب مني فرد ذراعي، أعرف المطلوب مني، تطلعت إلى باطن ذراعي، بأصبع واحد تحسست الوريد، يبدو أن أمرها استقر، تناولت الرباط الملون، عليه رسوم مرحة، أزرق، أحمر، أصفر.

درت بوجهي حتى لا أرى دخول الإبرة في سطح جلدي، تنفذ منه إلى صميم الوريد، آلمتني الوخزة غير أن هذا لم أعره اهتماما، ما أخشاه رؤية السن النحيل، الرفيع، يلج الجلد، ليس بالنسبة لي، إنما لأي شخص، غريب أمري، لم أخش رؤية أهوال الحرب، خاصة ما يتصل بالجسد البشري وفِعْل الشظايا الملتهبة بالتكوين وبعثرتها للمنظومة، لم أرتجف لرؤية هذا كله، لكم شاهدت، ولا أقدر على رؤية وخزة إبرة!

سحبة مؤلمة، دماء غامقة، ياقوتية قاتمة، فيها شفرتي ومكونات سعيي، كانت تفرغ بعض القطرات في أنابيب مختلفة، تضع قطرة فوق قطعة صغيرة مستطيلة من زجاج، تبسطها بقطعة أخرى، تؤدي عملها بآلية، صفاء أو صفية قامت بهذا كله وعيناها تتطلعان إليّ من أسفل إلى أعلى برفقة ظل الابتسامة الدائمة.

«بعد ساعتين من الإفطار يمكنك أن تعطي العينة الأخرى..». .

ثم قالت كأنها تسجيل صوتي:

«الإفطار يجب ألا يتجاوز عشر دقائق..».

أومأت برأسي شاكرًا، أقدمت على النهوض، سارعت:

«انتظر..».

وضعت الغطاء الدائري الطبي فوق موضع الوخزة اتقاء للتلوث، في المرة السابقة جرى هذا كله بسلاسة، بهدوء ويسر، واستكانة مني، خرجت من الباب إلى السلم، أخرجت الشطيرة لأبدأ التهامها على الفور تقصيرًا للوقت، كنت أقضم لقيمات صغيرة. أمضغ على مهل. إفطار ضرورة.

الشوارع هادئة، الضوء قوي، تلك أشد أيام السنة حرارة، بؤونة، توازي يونيو، العربات تصطف على الجانبين، منذ حوالي أربعين عامًا كانت المنطقة كلها أراضي زراعية، حدود المباني المتحف الزراعي، وزارة الزراعة، عادتي اليومية بعد مفارقة المكتب، انتهاء يوم العمل، أن أمشي في الشوارع الظليلة، تحت أغصان الأشجار

المورقة، ما بين ميدان فيني وشارع الدقي، كان عدد العربات محدودًا، والمارة أقل، المنطقة أهدأ، الآن تمتد البنايات الحديثة لتعبر خط السكة الحديدية إلى الغرب، تتآكل المساحة الخضراء بسرعة مخيفة، حتى وقت قريب كانت منطقة المهندسين تلك الأرقى، يستقر فيها الأثرياء، والمثقفون ميسورو الحال، بعد أن اكتظت اكتشف البعض المنطقة الريفية القريبة من الأهرام، ظهرت القصور المسورة على ضفتي ترعتي المنصورية والمريوطية، قلت بصوت مرتفع:

«الأثرياء يفضلون السكنى بعيدا عند الحواف..».

بعد نطقي لاحظت خلو الطريق، ربما لأن اليوم أحد، عطلة الكثير من المتاجر، حتى الناصية فرغت من الشطيرتين، تمنيت لو تناولت إفطاري العادي، لبن زبادي، كوب قهوة باللبن، ملعقة عسل نحل، لكن توفير هذا صعب والبيت بعيد في المعادي، قصدت المقهى الذي اعتدته المرات الماضية، أفرنجي الطابع لكنه يقدم النرجيلة، رغم انقطاعي عنها منذ سنوات إلا أنني أقدم على مسافات متباعدة.

لا أحد..

جلست إلى المنضدة القريبة من الطريق منتظرًا، مرّ حوالى ربع ساعة قبل أن أفاجأ بالرجل نفسه، يمسك بالنرجيلة، صباح الخير، صباح النور، أسندها أمامي، بقطعة ورق مقوى راح يحرك الهواء لإلهاب الجمرات، أدركت أنه بدأ تسخين الفحم لحظة دخولي،

رآني من مكانه في الداخل ولم أره، من الطبيعي أن أتعرف عليه، لكنه يرى يوميًّا كثيرين لم أتردد إلا ثلاث مرات، على امتداد ثلاثة شهور، لا بد أنها فرادة الموعد الذي أظهر فيه، من الواضح أن العمل الكثيف يكون ليلاً أو بعد الظهر، ربما يفتح أبوابه ليلاً ونهارًا، معظم المقاهي الآن تفتح أبوابها ليلاً ونهارًا، عندما بدأت ارتيادها في أوائل الستينيات من القرن الماضي، كان المقهى الوحيد المسموح له بالسهر حتى الصباح، الفيشاوي في الجمالية، ومكان آخر للعابرين لم أعترف به كمقهى قط، بوفيه محطة مصر، ترى.. أين كانت صفاء أو صفية وقتئذ؟ لا أظنها ولدت بعد، ملامحها كما تلوح لي متجاوزة للثلاثين، سنوات معدودة بعدها، في هذه اللحظة استعدتِ ذلك الشجن الرهيف البادي من طلتها، ثمة شيء ما، لا أدري، لكم تمنيت رؤيتها مرة أخرى، لا أستطيع أن أطلب ممرضة بالتحديد لأخذ العينة، لهم نظامهم، علاقتي ليست حميمة بالمكان.

قرأت صفحات من كتاب بدأته أمس «أساطير معبد إدفو»، عندما جاء الرجل مرة أخرى ليضع أمامي قائمة الطلبات المطبوعة.

«من فضلك، ممكن أشرب قهوة باللبن وبدون سكر..».

كرر:

«بدون سكر؟!».

أومأت مؤكدًا، عدت إلى القراءة، إلى متابعة شرح طقوس بناء المعبد، علاقة اتجاهه بالجهات الأربع الأصلية والفرعية، وضع إناء

من الفخار ممتلئا إلى نصفه باللبن، الكوب الآخر تفوح منه رائحة القهوة سريعة الذوبان، أمسك بإناء اللبن، راح يصب منه بعناية إلى أن أشرت بيدي شاكرًا، بدأ عندئذ فتح زجاجة المياه المعدنية، أدركني خجل، يمكنني أن أقوم بهذا، عاد بعد دقائق ليقول إنه لاحظ ضيقي بالحر، يمكنني أن أنتقل إلى الداخل، يوجد تكييف، قام بتشغيله، والحرارة الآن هادئة، محتملة.

«لا.. لا يا أستاذ..».

أصر على أن يحمل النرجيلة، تقدمني إلى الداخل، اخترت المنضدة في الركن، رغم خلو المقهى تمامًا إلا أنني أوثر موضعا يمكنني منه رؤية المكان كله خاصة إذا كنت مفردًا، أرقب هذا، وأصف ذلك بكلمات غير منطوقة، أرقب اختلاف الشرب، ونفث الدخان، وتطلع كل منهم إلى الآخر.

جاء الرجل يسألني إذا كنت في حاجة إلى شيء، طلبت تجديد حجر النرجيلة، عندما عاد ليثبته بدا دقيقًا، حريصًا، لم أدر كيف يراني؟ المقهى على مسافة من المعمل، لا أظنه يخمن صلتي بالإفطار، اضطراري إليه بسرعة، في المرات السابقة تناولت بعض البسكويت، لم أقدم هذه المرة، يبدو ضالعًا في الصنعة رغم حداثة مظهره، من الأصول التي رواها لي عم عبده نادل مقهى الفيشاوي المخضرم، إنه لا بد من البشاشة والعناية بالزبون أيا كان، فهو في حقيقته ضيف، وللضيافة أصول، لا بد أن يكون القهوجي قادرًا على إبداء العناية بالجميع، أن يشعر كل منهم أنه المعنى، المقصود، وألا يثقل عليه إذا كان منفردًا، إلا إذا لاح منه وهن، أو بدا عليه ألم، كما

يجب أن تكون ذاكرته قوية! رحم الله عم عبده، رحل في المقهى، في المكان الذي لم يعرف غيره، عرف المهنة أبا عن جد، يمثل وجهه البشوش في ذروة الزحام، طاقيته البيضاء، حضوره الحميم، أستعيد لحظة من مدينة ليل الفرنسية، رجل بدين، أسمر يرتدي قبعة داخل بار يقع على الناصية، يجلس إلى الكرسي المرتفع، يتحدث إلى النادل الذي كان يتحرك باستمرار، مالئًا الكئوس بالنبيذ، والأكواب كبيرة الحجم بالبيرة مختلفة الألوان، لحظات تبادله الحديث مع الأسمر تتصل الحميمية، يرفع كأسه تحية، شاربًا نخبه، ابتسامات مرحبة، مصادرها أزمنة متباعدة، وجوه مختلفة يتردد صداها عندي، لاقيت أصحابها هنا وهناك.

رغم أن الرجل لم يتردد عليّ إلا مرات معدودات، إلا أنه خلف عندي أثرًا كأنه أمضى المدة كلها بصحبتي، كنت متأثرًا لصادق وده، خجلا من إبداء العناية، خفف عني مضي المدة، عندما عدت إلى الطريق أدركت السرعة التي مضى بها الوقت رغم صعوبة الفترة في البداية، بدت ممتدة كأنها لن تنتهي، مع قناعتي أن كل ساعة ستولي مهما بدا منها ولها.

في صالة المعمل كان العدد أقل، الهدوء عينه، النظام، الهواء المكيف، رجال الأمن الخاص، ثلاثة، أولهم يقف عند الباب الخارجي، الثاني إلى مكتب في الصالة يواجه القسم الذي يتم فيه الدفع وتوزيع المرضى على الممرضات، الثالث عند مدخل الممر المؤدي إلى المعمل، حيث الفحص، والتدقيق.

جلست هادئًا، مترقرقًا، أنوي القدوم إلى المقهى في أيام أخرى،

مواقيت عادية لا ترتبط بظروف صحية عارضة أو طارئة، سمعت اسمي، بدا الصوت مختلفًا..

ياه، أي مفاجأة! كانت تقف متطلعة إليّ، منها البدء والسريان، ابتسامة طلتها الشجية، لم أتوقع هذا قط، ظننت من أخذت الأولى ستأخذ الثانية، هذه المرة لا بد أن أستوثق اسمها، أبذل الجهد لعل وعسى، بادلتها النظر راضيًا وشخصت إليها مودعًا..

يونيو ٢٠٠٣

سعي في لنـدن

تتوقف العربة أمام الفندق، لولا لافتة معلقة عند المدخل لما أدركت، مدخل مماثل تماما لبيوت لندن التقليدية، لا ترتفع أكثر من طابقين أو ثلاثة، جزء من بيوت متجاورة، متلاصقة، أحجارها سوداء، تتخللها خطوط فاصلة من جير أبيض، كأني أنزل بيتا حميمًا، أقصد أسرة أعرفها، أفضل تلك الفنادق الصغيرة، ذات الطابع الخاص، لا تبهرني الفنادق الكبيرة التى تتشابه في العالم كله، مما زادني ألفة صاحب المكان، من قبرص، عندما عرف جنسيتي، رفع أصبعين، قال إنه زار شرم الشيخ مرتين، قال إنه سيذهب قريبًا، بدا ودودًا، حدثته عن صداقة عبد الناصر بالزعيم مكاريوس، رفع حاجبيه وكأنه يقول: أين تلك الأيام؟

رتبت حاجاتي كما اعتدت، الملابس، الكتب، الأسطوانات المدمجة، ترتيب الأشياء وفقًا لعادات معينة يضفي خصوصية على مكان مؤقت أعبره بسرعة، عندما نزلت إلى مكتب الاستقبال طالعتني فتاة شابة جميلة، قالت إنها من تشيك، جاءت لتعمل وتزور المتاحف، وترى المسارح، خلال أيام إقامتي الثلاثة سألتقي

بالعاملين في الفندق، من اليونان ، المجر، إسبانيا، ممثلين، للاتحاد الأوروبي الذي ألغى الحدود بين الدول الأوروبية، صار التنقل ممكنًا، العمل هنا أو هناك، خرجت إلى الطريق مزودًا بخريطة صغيرة، عند الناصية توقفت متطلعا إلى المبنى المرتفع القريب، يشبه العمارة السوفيتية، اسمه السينيت، كان تابعا لجامعة لندن قبل تقسيمها، جامعة لندن، أتطلع إلى الناصية المقابلة، جامعة لندن. جامعة لندن.

لا أرى المكان بعيني، إنما أبصره بمنظور ابنتي.

ماجي ستجيء إلى هنا بعد ثلاثة شهور، ستقيم لمدة عام، ستدرس في جامعة لندن، ستعد رسالة علمية في العلوم السياسية، قبل أن تدافع عنها لتحصل على درجة الماجستير.

ماجي التي كنا نخشى عليها النزول بمفردها إلى الطريق، في حلوان أو المعادي حيث أقمنا ونقيم، ماجي ستمكث في لندن، تقيم، تدرس، تدبر شئونها، ستركب قطار الأنفاق، وهذه الحافلة الحمراء ذات الطابقين، وستعبر من هذه الناصية، تلك الناحية بالتحديد، لا أدري لماذا كنت موقنًا أنها ستقف عند تلك الناصية، تحتضن كتبها ومواثيقها، لها انحناءة خفيفة إلى الأمام، تتلفت حولها، أنبهها من الآن، انتبهي يا ماجي، المرور هنا عكس بلادنا، القادم من اليسار، عندما نزلت بلاد الإنجليز منذ ثلاثين عامًا أربكني ذلك، في إحدي المرات كادت عربة أن تدهمني، كنت أتلفت إلى اليمين كما اعتدت، لكن المسار كله مخالف، اقتضى هذا مني وقتًا.

هكذا جرى الترتيب غير المقصود، أن أجيء إلى لندن قبل وصولها بشهور معدودات، دعوة من نفس الجامعة، وجامعة أخرى أسسها الأغاخان، قطعت الطريق الجانبي، يصب في آخر أعرض، توتنهام كورت رود، عندما جئت أول مرة مشيت عبره مرات، لا أذكر شيئا محددًا إلا هذا البرج الذي يرتفع فوق البنايات كلها حتى الحديث منها، عند نهايته يبدأ شارع اكسفورد، عامر بالمتاجر الصغيرة والكبيرة، عند الناصية معرض فسيح، متعدد الطوابق لأسطوانات الموسيقى والأفلام، في المقابل يمتد تشيرنج كروس رود، أخبرني صاحب حميم بوجود مكتبات متجاورة تعرض كتب الفن بأسعار مخفضة.

ستتحرك ماجي هنا، مرة ستعبر بسرعة، مواعيد المحاضرات، الأساتذة، المكتبة، أستعيد جلساتها إلى المكتب، في سنوات الحضانة، الابتدائي، الإعـدادي، الجامعة، التحديق في شاشة الحاسب الآلي، طباعة أوراق لازمة، استغراقها التام، العميق، عندما ظهر الإعلان عن المنحة الدراسية، أجابت على اقتراح أمها بأن المنافسة شديدة، الفرصة ضئيلة، إزاء الإلحاح مضت إلى المركز البريطاني.

عند وصول خطاب يحمل شارة المركز أغمضت عينيها خشية مضمون غير موات، أصرت أن يفتحه محمد أخوها، عندما أعلن القبول أشفقت الأم عليها من الانفعال، احتضنتها داعية ومهدئة، بادرت لتفضي بالخبر إليّ، كنت أيضًا على سفر، فيما تلا ذلك، توالى وصول خطابات القبول في الجامعات الخمس التي راسلتها، اختارت جامعة لندن لاتصالها الأوثق بما تريد أن تدرسه.

صباح اليوم الأول لإقامتي أعبر الطريق متجها إلى المتحف البريطاني، قريب جدا من الجامعة، اجتزت المدخل المهيب الذي أعرفه، غير أن السقف الزجاجي الهائل اختلط أمره عليّ، لم أكن متأكدًا من وجوده خلال ترددي السابق، آخر زيارة منذ عشر سنوات.

جئت مبكرًا، القسم المصري يفتح أبوابه عند العاشرة، جلست أقرأ في كتاب صادر حديثا عن المتحف، عنوانه: «أصوات من مصر القديمة»، يتضمن نصوصًا شعرية ونثرية من الدولة الوسطى، عندما رفعت عيني رأيت ماجي.

هذا يوم تتاح فيه سويعات من الفراغ، ها هي تجتاز الساحة الداخلية الفسيحة، تقصد القسم المصري تلبية لنصيحتي أو وصيتي، لا تخلف لي طلبًا، ستتذكرني هنا، ربما تترقرق مشاعرها على البعد، سأطلب منها أن تتأمل طويلا وكثيرا في حجر شاباكا الذي أجيء اليوم من أجله.

العاشرة تماما تفتح الأبواب، يتدفق المنتظرون مباشرة إلى الداخل، لا نقاط تفتيش، لا أجهزة أشعة تمر خلالها حقائب اليد، كل ساعة أقضيها في لندن، أو أتنقل عبر شوارعها ومنشآتها، يزداد إعجابي بالأمن المستتر، الأمن الخفي، الأمن غير المنظور، الحاضر بقوة لكن خفية، هكذا كانت مصر حتى مطلع السبعينيات من القرن الماضي.

ستدخل ماجي من هنا، ستتوقف مثلي أمام حجر رشيد،

أو حجر روزيتا كما يُعرف هنا، تأملته قليلا، اتجهت إلى يمين الداخل، إلى حجر شاباكا، رغم استغراقي، كدت ألمس نظرات ماجي إذ تحدق عن قرب إلى الحجر الذي يحكي خلق العالم في إيجاز مبهر، سأقول ذلك لماجي، أطلب منها أن تطيل النظر، كأني أتطلع بعينيها.

يونيو ٢٠٠٦

بقــايا

أفاجأ بالكراتين، مرصوصة، متجاورة عند مدخل الصالة، ظننت أن صلاح السائق سينقلها غدًا، لكن يبدو أنه وجد فسحة وقت ليأتي بها اليوم، عندما ترجع ماجدة سأعرف منها بالضبط.

عليّ إعادة ترتيب الأشياء، تلك اللوحات المتجاورة، المصفوفة بميل مستندة إلى الجدران، علبة الأقلام، حمالة الأوراق بأقسامها، كرسي المصحف، نموذج المسجد الأقصى الخشبي المُهدى إليّ من أدباء رام الله، زاروني يوما ما لا يمكنني تحديده الآن، بعد أن أمضوا وقتا جرت خلاله بيننا مداولة، قدموا إليّ هذا النموذج الدقيق، المنمنم ، استقر فوق مكتبي أكثر من عشر سنوات، مقلوب الآن في صندوق الورق المقوى الذي اتسع له ولتمثال رأس نفرتيتي الناقص، نموذج دقيق من الأصل المعروض بالمتحف المصري، لكم أثار فضول الزائرين، لكم تحدثت عن الناقص والكامل، الناقص يوحي ويؤجج الخيال، أما الكامل فلا يدع فرصة.

الصور داخل إطاراتها تطل من الصناديق، دستويفسكي في العشرين، نادرة، بالقلم الرصاص، قبل سفري من موسكو بيوم

واحد عام سبعة وثمانين، قدمتها لي أولجا فلاسوفا، مستعربة متمكنة من العربية، لطيفة، رهيفة الحضور، غابت أخبارها عني بعد ما جرى من تحولات، لا أدري كيف عرفت أنها أنجبت طفلين، لا أذكر من أخبرني.

صورة لهرمان ميلفيل، جاءني بها صاحب حميم من الولايات المتحدة، يعرف هيامي بموبي ديك، لم أعرف غيرها له، لم أطلع على أيَ صورة أخرى فيما كُتب عنه، أو دوائر المعارف، أتطلع إليها من وقت إلى آخر، كلما طالعتني قسماته أستعيد الكابتن إهاب، إسماعيل الراوي، الحوت الأبيض المهيب، أخرى لهمنجواي، يبدو فيها شابا، مغايرا لملامحه المستقرة عندي منذ أن قرأت روايته «لمن تدق الأجراس» في الستينيات، مترجمة في جزأين، على الغلاف الأخير صورة دائرية له حددت ملامحه عندي، لم تغير اللقطات العديدة التي اطلعت عليها في مجلات أدبية متخصصة، وكتب عنه، هيئته التي طالعتها أول مرة، أخرى لكافكا أصغر حجما.

صورة لمارسيل بروست في إطار بيضاوي.

إطار كبير يحيط ملصقا لأدباء أيرلندا، جويس، شو، ثاكري، سان جون بيرس، بيكت.

جاءني بها محمد ابني عندما عاد من بعثة تدريبية، أمضى خلالها شهرا في دبلن.

إطار مقارب في الحجم، ملصق لدار نشر من ألمانيا الشرقية قبل انهيار الجدار، صور صغيرة لجميع الأدباء الذين نشرت لهم

الدار التي تخصصت في الآداب الأجنبية، بعض الكتاب لم أتعرف إلى ملامحهم إلا من خلال ذلك الملصق مثل أنطوان دو سانت أكزوبيري، دار الشعب والعالم لم تعد موجودة، اشترتها دار غربية لا أذكر اسمها.

صورة ملصقة إلى ورق مقوى، هكذا وجدتها في مكتب سيدي محمد بريول تلميذ الرجل الذي التقيته ثلاث مرات، اثنتان في فاس، وثالثة في باريس، واحد من قلة، إليهم يرجع الفضل في حفظ الموسيقى الأندلسية بالمغرب، تدوينها وعزفها، رحم الله الحاج عبد الكريم الريس، وسيدي محمد التمسماني الذي لم أعثر له على صورة، كثيرا ما استفسر زواري فأقول لهم إنه رجل مكين عندي، استمعت إلى عزفه ورأيت قيادته لجوق البريهي، إنه أقرب إليّ مما تتصورون رغم أن حديثي إليه لم يتصل، ومعرفتي الشخصية به لم تكتمل..

الجنرال عبد المنعم رياض كما أفضل النطق به صورة وحيدة بالمواجهة، هكذا عرفته، أخرى للفريق أول محمد فوزي وقد اتصلت بيننا الأسباب إذ أتطلع إليه يحدثني وأصغي إليه، أما العميد أركان حرب إبراهيم الرفاعي فكأنه يقف أمامي..

أميل إلى صندوق أصغر حجما، مستنسخات لمنمنمات فارسية، بعضها للأستاذ بهزاد، إطاراتها مذهبة، أبحث عن لوحة أصلية أتتني بها صاحبة حميمة، قريبة، مقربة، كانت في زيارة إلى استنبول، وعندما رأت هذا الرسم المنمنم لمولانا جلال الدين

الرومي، يقعد متضامًا، متداخلاً ملتحفا بعباءة خضراء، في لحظة خشيت من اختفائه، إنها الوحيدة الأصلية في هذا المجموع كله..

صورة لمولانا وسيدنا الحسين، جاءتني بها ماجدة من إيران، يبدي البعض تعجبهم إزاءها وكذلك في مواجهة الأخرى لسيدنا علي عليه السلام، فأقول إن صورهم المباركة كانت تباع بشكل عادي إلى جوار المساجد الكبرى حتى نهاية الستينيات، ثم اختفت ولم أرها إلا في تونس مع لوحات أخرى لخليل الله إبراهيم يتأهب لذبح سيدنا إسماعيل وفي الركن الأعلى سيدنا جبرائيل قادمًا بالكبش، أخرى لأبينا آدم وأمنا حواء وإبليس اللعين حول الشجرة على هيئة ثعبان يغريهما بالتفاحة، إطار مستطيل داخله ثلاثة، والد الشيخ أحمد الطيب، وجده الطيب الكبير الحساني، عليهم رحمة الله أجمعين، إطار آخر داخله آية قرآنية ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى**﴾.

آية طلبت من زميل قديم اشتهر بجمال الخط، كتبها وغاب عني فكانت آخر ما عرفته منه.

مستنسخ لتمثال الملكة تي، آخر لتمثال فتاة مضفورة الشعر، نائمة، ترفع يدها ملامسة جبينها، أصله في اللوفر.

قصيدة بخط يد عبد الوهاب البياتي، أهداها إليّ، تبدأ:

وجه بقناع فرعوني

في البيت أحتفظ ببراءات أوسمة، وشهادات تكريم من جهات

شتى، لم آت إلى مكتبي إلا بشهادة من نقابة الصحفيين المصريين، مُنحت لي بعد انتهاء حرب أكتوبر، يأسرني إيقاع هذا السطر..

«دوره الوطني الشجاع في حرب أكتوبر...».

أتطلع إليها داخل الصندوق الكرتوني، عندما سافرت إلى الاتحاد السوفيتي أول مرة عام ستة وثمانين من القرن الماضي، رأيت رجالا ونساء عجائز، يرتدون سترات عسكرية فوق ملابس مدنية، صدورهم مثقلة بأوسمة شتى، بعضهم علق بعضها فوق الآخر لضيق المساحة المتاحة، قيل لي إن بعضهم يحصل على امتيازات، مثل ركوب المواصلات العامة مجانا، والأولوية في العلاج، استعدت ملامح شتى تداخلت، تقاطعت، لكنها تجسد معاناة وتدهور أحوال، رثاثة السترات، صدأ الأوسمة أحيانًا، لم أخض معارك مثل بعضهم، لكنني في مدخل البيت الذي صفت فيه الصناديق التي تبرز منها بقاياي يخيل إليّ أن شيئا ما يجمعني معهم، ترى ماذا آل إليه أمرهم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، تثير البقايا أسى شفيفا يستعصي على التفسير.

في الحارة حيث أول سعيي، لطالما أثار حاتم أفندي الرهبة بغموضه ومركزه، كان موظفا مدنيا في الداخلية، يمكنه المساعدة في استخراج الوثائق خلال جلسة قصيرة قبل أن يفرغ فيها من شرب فنجان القهوة، هذا إذا أراد وأظهر المساعدة، كان مختصرا في حاله، حرم على أهله المخالطة، يسكن شقة من ثلاث غرف وصالة، ولديه مذياع، كان ذلك نادرًا في بداية الخمسينيات، كما أنه يعلق ستائر على نوافذ بيته وشرفاته.

ذات يوم قيل إن حاتم أفندي يعزل، سينتقل إلى العباسية، وقال آخرون إنه استأجر شقة فسيحة كلها معرضة للهواء والنور، تطل على شارع فسيح، يقول البعض: «ربنا فتحها عليه وانتقل إلى حي أولاد الذوات..».

عندما جاءت العربة التي يجرها حصان قوي وبدأ إنزال العفش، مقاعد حجرة الاستقبال، السرير الذي تم تفكيكه، كذلك صوان الملابس، فرن البوتاجاز، صناديق فيها إبريق وأكواب، سجادة مطوية،كل ما شغل البيت تم تحميله وربطه بحبال قوية عند تحرك الحصان وصياح العربجي الحاض له على التقدم، بدا شيء ما يبعث على الأسى، صحيح أن قلة في الدرب لديهم مثل حاتم أفندي الموظف العام، لكن عندما يتبدل الوضع، عندما تخرج الحاجيات عن سياقها، تتبدل هيئتها، يتغير حضورها مهما تضمنت من قيمة.

أتساءل متطلعا إلى بقايا حضوري الذي تم: هل من مكان في البيت؟

يوليو٢٠٠٦

آخر الدنيا

في البداية لاح الأمر بالنسبة له كأنه يخص شخصًا آخر، يصغي إلى التفاصيل غير قادر على الاستيعاب، إلى أن سافر خطيب ابنته، بدأت الاتصالات عبر الهاتف في توقيتات متباعدة، تطل الشمس هناك وتختفي هنا، حوالي اثنتي عشرة ساعة، في البداية لم يلُح أي احتمال لذلك، جرى إعداد الشقة وتجهيزها، بل تم اختيار بعض قطع الأثاث، وجرى العمل في الغرف الثلاث، لن يتغير شيء، سيعودان يوما ليستقرا في مصر، إنه في مهمة مهما طالت، فرصة عمل نادرة بالنسبة لمتخصص في الحاسب الآلي، هكذا غيّر الخطاب الذي أرسله منذ حوالي سنة كل الخطط، ولاح تبدل المصائر، عندما قرأ الإعلان المنشور بالإنجليزية في الأهرام، الشروط منطبقة عليه، فكر في الإقدام، أرسل خطابًا إلى مقر الشركة في هونج كونج، لم يعول كثيرًا، بل إنه كما قال فيما بعد نسي الأمر تمامًا، إلى أن وصله الخطاب بالبريد الإلكتروني يخطره باختياره وإرسال العقد إليه بواسطة البريد الدولي ليوقعه ويعيده بنفس الوسيلة، عادة تحدد الشركة المدة بخمس سنوات، هكذا وقّع أحد زملائه، بالتأكيد ظروفه أفضل،

زميله أرسلوه إلى نيجيريا، هناك العمل بعيد عن المدن الكبرى، التطعيمات العديدة التي قام بها ضد الحمى الصفراء والكوليرا وأوبئة أخرى، تدل على صعوبات ستحيط به ومخاطر كامنة، أما هو فتركوا العقد مفتوحًا، له أن ينهيه في أي وقت، القرار بيده هو، لا بند يلزمه ولا نص يحده، أما المكان الذي حددوه له فلائق ببداية حياة جديدة رغم بعده، قال متداركا: إن العالم صار قرية صغيرة، وأبعد الأماكن تتساوى مع أقربها، وأن الإنترنت سيجعلهم على اتصال يومي بالصوت والصورة، نصح بتركيب خط متصل بالأقمار الصناعية، سريع جدا، بدونه لا يمكن الاتصال، قالت مبتسمة: إنها ستعلمني الخطوات التي ستتبع حتى أتقنها، قال ضاحكا: إذن رتبتما كل شيء! أصغى بهدوء، حرص على ألا يبدو عليه ما يعكس حيرته الداخلية ودهشته من حيدة الأمور عن مسارات توقعها ولم يخطر له اختراقها.

ابنته هذه التي تخطو الآن نحو الرابعة والعشرين، لا يزال يخاف عليها إذا تأخرت قليلا، يقف بالشرفة إذا عاقها شيء عن الوصول في مواعيدها المعروفة، يجري أكثر من اتصال بالمحمول، ابنته هذه التي رآها عند قدومها إلى الدنيا السابعة إلا الثلث من أحد أيام مايو الحارة، في ذلك المستشفى المطل على النيل، ابنته التي صحبها إلى الحضانة لينفصل عنها مع أمها، يتراجعان ملوحين لها في أول سعي لها بمنأى عنهما، كانت تتعجل المدرسة كما سبقها شقيقها الذي يكبرها بخمس سنوات، ينزل الآن مدينة تولوز الفرنسية، يحضر لرسالة الدكتوراة في جراحة القلب، يعمل أيضا في المستشفى، مضى على سفره عامان، عندما تغترب البنت يختلف الأمر عن سفر

الولد، لم يتوقع ذلك لها، وها هي الظروف تحكم، لا يريد أن يحول بينها وبين بدء حياتها الجديدة مع من اختارته أو اختاره قلبها، الولد كويس وشهم ويريد أن ينشئ أسرة، عندما أفصح عن بعض مما يشغله، يؤرقه، قال بكلمات مدغمة، مختصرة إنه يفضل حصولها على عمل، ألا تلزم البيت، كان يريد أن يصرح بمعنى آخر عن خشيته من تغير الأحوال، ظهور تحول ما في المستقبل، عندئذ لا تجد نفسها في العراء، لحسن الحظ أنها ستمضي إلى بلدة تتحدث الإنجليزية، من دول الكومنولث، دراستها في الجامعة الأمريكية يسرت لها المستوى اللائق من المعرفة، وإتقانًا متقدمًا للغة.

يوما بعد يوم بدأ يتقدم في اتجاه استيعابه لرحيل ابنته، خطيبها سافر بالفعل، سيعود بعد أن يستقر، يهيئ البيت، بيت تحيطه حديقة، كل أسرة هناك تقيم في منزل مستقل، أعلى مستوى من المعيشة في العالم.

بدأ اهتمامه بالجزيرة النائية، الممتدة في نهاية العالم، أو بدايته. في أول الألفية قرأ أن أول شروق للشمس كان في جزيرة تابعة لها، هناك الهدوء المعقم، والخضرة الخصبة، وخير وفير، استفسر عن خطوط الطيران المؤدية، محطات التوقف وتغيير الرحلة، البحرين أو دبي، أما الطيران الصافي بدون ساعات الانتظار فيتجاوز الأربع والعشرين ساعة بدقائق، تأمل الخرائط، الخطوط الملخصة للمكان والزمان، في نقطة ما من هذه التعاريج ستقيم ابنته، سيأتي حفيده إلى العالم، وبعد سنوات يسعى من يسري في عروقه دمه وربما لن يعرفه إلا باعتباره جده المصري البعيد، ربما يتحدث مع زملائه بفخر، وقد يسعى لمعرفة شيء ما عنه.

أي خبر يرد فيه «نيوزيلندة». يتوقف عنده، في المكتبة المواجهة لكلية الفنون بالزمالك، عثر على كتيب سياحي بالإنجليزية في حوالي ثلاثمائة صفحة، التاريخ، السكان الأوائل، اسمهم الماوريون، لكن المعاصرين ينحدرون من الإنجليز الذين وصلوا في القرن التاسع عشر إلى شواطئ، مجمل طولها خمسة آلاف كيلو وبضعة كيلو مترات، جزيرتان نحيلتان.

يدقق النظر إلى خطوط الطول، إلى خطوط العرض، إلى لون أستراليا البني، إلى لون نيوزيلندة الأصفر، إلى الصور، «أغنام»، أغنام ترعى في خضرة ينم لونها عن خصوبتها، في مكان ما، هنا في آخر العالم ستقيم، ستتحدث إليه عبر الهاتف، ستذكره، عندما يدقق في الأسئلة، تقول بدهشة:

«بابا.. إنت حتزورني مع ماما طبعا..».

«طبعا.. طبعا..».

«أمال مالك بتتكلم كأنك مش حتشوفني تاني..».

يوليو ٢٠٠٦

جارتي

بمجرد عبوري البوابة الضخمة وإغلاقها، أصبح بعيدًا عن العالم، منفردًا، وحيدًا تماما، الطابق الأرضي به العديد من الحجرات، كل تؤدي إلى أخرى، خيل إليّ أنها بلا نهاية، لم أشعر بالرغبة في فتح مزيد من الأبواب، أو النزول عبر السلم الحلزوني الذي تلوح بدايته والمؤدي إلى الطابق تحت الأرضي، إحدى الحجرات المطلة على الفناء المكشوف بداخلها مكتب أسود اللون، فوقه أوراق مرتبة ودفتر لأرقام الهواتف، لم أفهم شيئا، اللغة سلوفاكية، هاتف قديم الطراز، رفعت السماعة، لم أصغ إلى أزيز الحرارة، عند وصولي إلى الطابق الثاني حيث أقيم، أتطلع إلى الباب الأحمر المجاور، مكان آخر للإقامة، أهو مشغول أم خال؟ الشاب الذي استقبلني ولم أره منذ لحظة وصولي لم يحسم، لم يكن متأكدا عندما قال إنه يظن بوجود ضيفة أخرى، لم تكن هناك أي علامة، لا صوت، لا حركة، أتعمد إطالة وقوفي أمام الباب وإدارة المفتاح أكثر من مرة، لعل فضولها يجذب من يقيم بالداخل، لكن لا أثر، أعبر العتبة إلى داخل الشقة، أغلق الباب، ينقطع أي احتمال لرؤية شخص آخر، البيت فسيح، غامض، يبدو أنه كان مقرًا لسكنى عائلة ثرية لا أعرف عنها شيئًا، لا

يقلقني النوم في أماكن نائية أو خالية أو مهجورة، لو أنني استعدت الأماكن التي قدر لي أن أغفو فيها لاتسعت القائمة وتناقضت محتوياتها، من رمال الصحراء التي افترشتها يومًا إلى غرف الفنادق الوثيرة والفقيرة، إلى بيوت لم أظن قط أني مقيم بها، مثل قصر بيت الشريعي في سمالوط الذي كان مكونًا من اثنتين وخمسين غرفة، تم الاستيلاء عليه في بداية الخمسينيات مع صدور قوانين الإصلاح الزراعي، ثم استخدم في أغراض شتى، مثل اتخاذه مقرًا لمشروع معونة الشتاء، ومصنعًا للسجاد اليوم، وسنترال المدينة، أقمت به منذ واحد وأربعين عامًا لعدة شهور، ورغم ما سمعته من حكايات متداولة حول شنق بعض الفلاحين في طابقه الأرضي، فإن الخوف لم يدركني قط، لكثرة ما سافرت وانفردت بنفسي لم أعد أخشى إلا هواجم الوقت وضرر الإنسان، قبل أن يفارقني الشاب قال إن ثمة حكايات متناقلة عن سيدة بيضاء تمامًا لا تظهر إلا في الأماكن المهجورة، أستعيد ما قاله وأبتسم وحدي ساخرًا، ما أخشاه اعتلال صحي مفاجئ، أرصد أي متغيرات في النبض الذي أصغي إليه عندما أسند رأسي إلى الوسادة، هواجس الليل، لكم تمنيت أن أرى جارتي تلك، يثير ذلك اطمئناني، لو أنني جئت البيت قبل عشرين عامًا أو ثلاثين وأقمت بمفردي مع علمي بوجود أنثى لا يفصلني عنها إلا جدار لأثار ذلك صورًا وأخيلة مختلفة تماما، وجود الأنثى محرض في حد ذاته، باعث على استنفار قوى مغايرة تماما ومشاعر مختلفة، الآن أحاول التأكد من وجودها ليس بدافع فضولي يستهدف التعارف، إنما ضمانًا لمساعدة ربما أحتاج إليها إذا دهمتني أزمة في هذا المكان البعيد عن موطني في وسط أوروبا.

في الصباح أصغيت، كنت مستيقظًا، لم أغادر الفراش بعد، رغم بعد المسافة بين المدخل ومرقدي فإن فتح الباب كان واضحًا، إدارة المفتاح في القفل، ثم صوت الخطوات، كعب حذاء نسائي، خطوات قوية، واثقة، رحت أرهف السمع حتى غابت مع درج السلم المتجه إلى أسفل.

إنها الثامنة تماما..

أستعيد دقات الكعب، قوية، واثقة، سريعة، لا بد أنها شابة ربما في متوسط العمر، ربما متوسطة القامة، خطوها يؤكد أنها تعرف المكان جيدا خاصة عندما تردد فوق السلم، أهي ضيفة مثلي أم أنها مقيمة؟ لا أظن أنها مقيمة، الشاب قال إنه بيت لضيوف الوزارة.

أهي أجنبية مثلي؟ إلى أي جنسية تنتمي إذن؟ أم أنها سلوفاكية قدمت من إقليم ما، في مهمة بالعاصمة؟.. نزولها في الثامنة يعني أنها مرتبطة بعمل ما .. بجهة رسمية.

عدت في الواحدة بعد منتصف الليل، يوم طويل أمضيته ما بين الجامعة ومقر اتحاد الكتاب، وتجول في المدينة القديمة بعد تناولي العشاء، لم أعرف خطاها عند القدوم، لم أعرف في أي ساعة عادت، لا بد أنها نائمة الآن، أو تقرأ قبل النوم، اختلف إحساسي بالمكان بعد يقيني أنها موجودة، أن ثمة إنسانا آخر، أنني لست وحيدًا في المبنى، ولأنها أنثى فالإدراك اتخذ بعدًا مغايرًا لم أقدر على تحديده بالضبط.

الثامنة تمامًا صباح اليوم التالي، بالضبط، تكة الباب، إغلاقه،

استدارة عاجلة للمفتاح، مرة أخرى، لا بد أنها وثابة، تفيض حيوية، هكذا ينبئ نزولها السريع.

اليوم تمكنت من الإصغاء إلى خطوها على أرضية الشارع عقب إغلاق الباب الرئيسي، عند عودتي الليلية تطلعت إلى الباب، إنها في هذا الحيز الآن، ربما تتمدد، تتحرك، أي ألوان ترتدي أم أنها عارية تماما؟ لو أن الوقت مبكر لفكرت في طرق الباب، لكن.. ماذا أقول إذا طالعني وجهها المتسائل؟ كيف أجيب إذا أبدت التجهم؟ الثامنة تماما، بالضبط، صوت الباب، المفتاح، الخطى السريعة الواثقة، لماذا لم أفتح الباب في عين ظهورها؟، أحييها بإيماءة، أبدي لها الود، ألا نقيم في مكان واحد، لو حل بأحدنا كرب ما فمن سيهرع إليه؟ ألا يملي الجوار خصوصية ما؟

غدا سأغادر، اتصلت بي السيدة التي استقبلتني في المطار، قالت إنها ستصل في الثامنة والنصف، ثم نتجه مباشرة إلى فيينا، قلت إنني أفضل المغادرة مبكرا، من الأفضل الثامنة خشية مفاجآت الطريق.

الثامنة إلا الربع نزلت السلم، حقيبة السفر في يد، وحقيبة الأوراق والأدوية في يدي الأخرى، لا بد أنني أحدثت جلبة وصلت إليها عند اصطدام الحقيبة الكبرى الأثقل بحواف السلم، الوقت ما زال مبكرًا، بعد عشر دقائق ستصل مرافقتي.

أجلس إلى المقعد المواجه للمدخل، حيث الدرج المؤدي إلى الغرفة، لن أصعده مرة أخرى، ثمة أماكن يوقن الإنسان عند

مغادرتها أنه لن يعود مرة أخرى إليها، منها تلك البناية، المؤكد هذه المدينة.

الثامنة تمامًا، مرافقتي لم تصل بعد، أصغي، بالضبط كما اعتدت خلال الأيام الخمسة الماضية.

خبطة الباب، يغيب عني دوران المفتاح، دقات الكعب تتوالى، تقترب، أفاجأ بها تفيض من المدخل بحضورها، بقوامها، تضوي، تمسك بطرفي المعطف لتحكمه قبل خروجها، تومئ بتحية، تقبل نحوي، أتطلع إلى عينيها موقفا أنفاسي، أغمس نظراتي فيهما.

تومئ بتحية قدرت أنها «صباح الخير»، لم أقدر على تحديد اللغة، تمد يدها لتصافحني، تشير إلى أعلى، إلى أذنيها، إليّ، إذن.. كانت تصغي إلى حضوري كما أصغيت إليها، تقول شيئا، أجيب مشيرا إلى حقيبتي إنني راحل الآن..

فبراير ٢٠٠٧

أوصـاف

ما بين الخامسة والخامسة والنصف يجيء عبده البلغجي، قديم التردد، يعرفه العاملون في الفندق، كذلك المطبعة المجاورة، والمطعم المواجه المتخصص في الطحال والفشة والكرشة والسمين المقلي، سنوات اعتاده القوم، إذا ظهر رحبوا به وأظهروا الود المتين، فوالده من محاسيب الحسين، كان مشهودا له بالصلاح والدراية وإظهار الصفح الجميل، إضافة إلى سمعته القديمة، الطيبة في الخان كأشهر وأفضل من ينقش الجلد بالفضة والذهب، له في ذلك تفانين، وعنه أخذ عبده الصنعة، لكن الوالد تخصص في المحافظ الجلدية، أما عبده فوجد نفسه في نقش البلغ، بعضها نسائي، ومنها رجالي سادة، لكن يمكن إضافة فصين زهراوي إلى الجلد، كلاهما، الأب والابن لم يمتلك ورشة، عملا بالأجر عند أكثر من معلم، مرة في الخان، ومرة في الغورية، ومرة في الوكر، كان للأب طلة وصمت محتمل، ودعاء رقيق عند صلاة الفجر بمسجد مولانا الحسين، ورث الابن عنه السكوت، وطول التحديق في اللا شيء، لكن انتهى هذا بعد زواجه، لم تطل غيبته

في شهر العسل، يمكن القول إنه أمضى أسبوعا فقط، لم يسافر إلى الإسكندرية أو بور سعيد، إنما في الشقة الجديدة التي استأجرها جاره الشيخ مرسي القريبة من أم الغلام.

عند وصوله تهلل عبد المقصود أفندي، الرجل البدين الجالس دائما إلى المكتب، إنه مدير الفندق النهاري يستلم من السابعة إلى السابعة، أما الحاج عبده النوبي فهو المدير المالي، عندما لمح عبده البلغجي صاح مرحبا: «أهلا بالعريس».

غير أن عبده لم يرد التحية بأحسن منها، بدا مهموما.

«مالك؟».

لوح بيده:

«الحال زفت».

ظن عبد المقصود أفندي والجلوس الذين اعتادوا شرب الشاي وتدخين النرجيلة في بهو الفندق أنه يواجه الصعوبات العادية التي يواجهها من لا خبرة لهم، مربوط يعني، حالات عديدة مرت على عبد المقصود أفندي وتوسط لحلها، ربنا سهل فيها جميعا، سواء الربط الذي يحدث عند بدء الزواج لقلة الخبرة وتعاظم الهيبة، أو ذلك الذي يبدأ عند منتصف العمر أو بعد طول عشرة لأسباب عديدة، لكن ما قاله عبده البلغجي فاجأه، وفي البداية لم ينتبه الحضور إلى ما يقول، لكنهم عندما بدأوا استيعابهم بحلقوا دهشين، قبل أن يصيح خلف بك المستشار المتقاعد:

«احتشم يا بني».

كأن عبده لم يصغ.. استمر متطلعا إلى نقطة تتجاوز عبد المقصود أفندي.

«هذا ما حدث».

سكت لحظات، رفع أصبعه، ضم الوسطى حتى أصبح مستديرا:

«.. أضيق من خرم القرش الأبيض».

أشار عبد المقصود أفندي إليه، اقترب منه، قعد إلى الكرسي الدائري يتطلع إلى أعلى لانخفاض موقعه، يجلس عبد المقصود أفندي أمام المكتب المرتفع عن الأرض بأرضية خشبية، خلفه لوحات المفاتيح وخزانة ضخمة فيها أمانات النزلاء، والمذياع القديم المثبت مؤشره إلى الإذاعة البريطانية ـ القسم العربي ـ والتي كان والد الحاج عبده النوبي يفضلها ولا يثق إلا بأخبارها منذ الحرب العالمية الثانية ومتابعة أخبار الحرب على الجبهة الغربية، تقدم روميل ثم تقهقر، ثم حرب فلسطين، كان الجهاز مصدرا للأخبار في المنطقة قبل انتشار الأجهزة ثم ظهور التليفزيون.

«عيب أن تفضح نفسك وتفضح عروستك».

تطلع إليه عبده شاكيا، موشكا على البكاء، قال إن بخته مائل وإن الحلو لا يكتمل، البنت فائرة وحلوة ومدملجة، فرشة حلوة، وثيرة، مريحة، ورائحتها يا سلام على رائحتها، سكرة، وريقها عسل، لكن هذا الجمال كله ليس فيه مكان ليضع نفسه فيه.

رغم أن الحديث كان يجري بينهما، ورغم أن صوت عبده

البلغجي أصبح أقل خفوتا، بل يكاد يكون هامسًا، لكن كل من يجلس في القاعة المفتوحة على الخارج أصغى إلى أدق كلمة، بل إن صمتا متواطئا بدأ بينهم، حتى سعادة المستشار السابق الذي أبدى الضيق ونهره في البداية أمسك بعصاه واستند إليها، صحيح أنه لم يتطلع مُباشرة إليه مثل حسن أفندي الموظف بوزارة التموين، وسعدي باعيسى المدرس الأعزب، المقيم في بيت قديم يرجع إلى العصر العثماني بمفرده والمطالب بإخلائه من مصلحة الآثار، وعبد الرحمن الأمهري، الطالب الحبشي المقيم برواق الجبرتية بالأزهر.

في البداية وجه كل منهم بصره ناحيته لكنهم اتفقوا جميعا على الصمت، خاصة عندما أفاض عبده في وصف مفاتن امرأته لعبد المقصود أفندي، وتأكيده أنها لا تحتاج إلى مشد لصدرها وأن نهديها في صلابة الرمان، ولحلمتيها انتصاب لم يسمع به من قبل، قال إن جسمها يدفئ ويسري الدم تحت الجلد حتى يصبح لونه أحمر، وتصدر عنها شهقات كأن روحها ستطلع، كل هذا وهو حائر، خائف لايدري ماذا يفعل، لخلوها تماما من المسالك.

كان الجميع يواجهون وضعا غريبا عليهم، ربما يعرفه البهو لأول مرة، فلم يحدث أن تحدث أحد الرواد عن امرأته بهذه الصراحة، وعلى مسمع من الجميع، حتى أن بعض النزلاء من أهل الأرياف الذين توقفوا لاستلام مفاتيح حجراتهم لم ينصرفوا عندما التقط بعضهم كلمة أو كلمتين.

مال عبد المقصود أفندي بقامته الضخمة ليقترب منه، صيفا وشتاء يرتدي معطفا فوق الجلباب، في الشتاء من الصوف، في الصيف من قماش خفيف، كتان أو جبردين، أما الطربوش فيستقر فوق رأسه، لم تتغير هيئته منذ أن رآه عبده لأول مرة، قال متسائلا عن الإمكانية فصاح عبده أن قدرته تمكنه من اختراق الحديد، والدليل أنها لا تكف عن تحذيره: «اوعى تعورني».

اتسعت عينا عبد المقصود أفندي وازداد تضاما واقترابا من عبده، ماذا جرى للعريس؟ ماذا حدث له حتى يتخلى عن صمته ويفضح نفسه هكذا؟ إنه مواجه بحالة لم يسمع بمثلها من قبل، يكاد يرى العروس أمامه، ماثلة، يبدو أنها فلتة، ربما لا يملأ هذا البلغجي عينيها، ليس غريبا عليه أن يشكو إليه الرجال أحوالهم، لكن كل ما مر عليه كان يجري سرا، كان يعرف أحوال من يقصده طلبا للعون من هيئة الملامح، من التردد، من الصمت الذي يسبق الإفضاء، إتمام سماع العبارة التي تتشابه رغم اختلاف الرجال عن «ارتخاء في الأعصاب»، لصداقته الطويلة بعدد من العطارين في سوق الحمزاوي وتردد التجار السودانيين الذين يأتون بالكركديه والحنة وإحليل التمساح وأنواع من الأعشاب البرية شديدة المفعول، لكن ما يراه من عبده البلغجي جديد عليه، بل إنه لام نفسه عندما أغمض عينيه أثناء إصغائه لشعوره بدفء يغمره، ودبيب يسري عنده حتى أنه عدل من وضعه، نصحه أن يأخذها بالراحة، ألا يقع عليها مباشرة، عليه أن يداعبها، يلاطفها، كثيرات منهن لا تلين مداخلهن إلا بالكلمة الحلوة، باللمسة، عندئذ يدفقن ماءهن الذي يساعد ويسهل، قال عبده البلغجي إنه سيحاول وأمره إلى الله.

في اليوم التالي لم يفت عبد المقصود أفندي أن الزبائن جاءوا مبكرين عن موعدهم، أول القادمين كان سعدي باعيسى، جاء في جلبابه الحريري الأبيض الشاهي، رغم أنه لم ير منه شيئًا، لم يعاين منه إلا الأدب الجم والصمت والمشاركة بقدر، لكن يقال كلام كثير حول بصبصته للنساء واجتذابهن نحوه بدون مجهود منه، لا أحد يعرف من يدخل ومن يخرج من البيت الأثري الذي يقيم به، حتى سيادة المستشار جاء مبكرا عن موعده عشر دقائق، وعندما تجاوزت الساعة الخامسة والنصف لم ينشغل عبد المقصود أفندي بهم، إنما تمنىٰ ظهور عبده ليعرف أخباره، ويسمع نتيجة نصحه، في اليوم التالي جاء مبكرًا، قال عبد المقصود أفندي بلسان الجميع إنهم انشغلوا عليه أمس، بدا شاحبا، زائغ العينين، لا يستقر بصره في اتجاه محدد، جاء السؤال من سعدي باعيسى، متمنيا أن تكون الأحوال أفضل.

مال عبده مسندا دماغه إلى راحتيه، مرددا أن حظه أسود من قرن الخروب، من يرى امرأته يرشحها للسينما، طول وقوام و... مهرة، مهرة والله ! ضرب صدره براحة يده، وصف نفسه بأنه الخيّال المناسب، لكن.. الحظ مفقود.. الطريق مسدود.

رغم أن صوته خفيض تلبية لعبد المقصود أفندي، لكن كل زبائن البهو معه، يصغون إليه، سأله عبد المقصود عما إذا كان لاطفها أم لا طلبا لدر مائها الميسر للأمر كله، شوح بيده، قال: إن ماءها أكثر غزارة مما تصور، وإنها تبذله حتى ليسيل واضحا، ظاهرًا لكن الطريق مغلق، مغلق، لكم حاول، وعندما طلب منها أن تريحه بيدها، بأي طريقة ندبت حظها العاثر، وقالت إنها ستلجأ لأمها..

«ماذا ستفعل أمها».

تساءل سعدي باعيسى بصوت هامس، ناصح، عندما اقترب منهما فارق مكانه في البهو، سحب مقعدا مستديرا بدون مسند، قعد إلى جواره، لمس ركبة عبده بيده، أكد أنه يعول همه وأنه حرصا على أسرار البيوت يرغب في إبداء النصيحة، تجاهل نظرات عبد المقصود أفندي المستريبة قال إنه طبقا لما وصل إليه من شكوى عبده، فإن البنية لا عيب فيها إلا ما يذكره، فمن أوصافه لها هي كاملة.. مكتملة. تطلع إليه عبده البلغجي مطلقا هذا التعبير المثير للتعاطف، والذي يجعله في وضع يشبه من يشرع في البكاء، أكد أنه لم يقصد وأنه حاول، لكن بخته وحش، عروس مثل السابحات الفاتنات ولكن..أومأ سعدي باعيسى مؤكدا أنه يفهم، يفهم، لكن لديه ما يود أن يسأل عنه: هل عرف نساء قبلها؟

استنكر عبده السؤال، استعاذ بالله، وقال إنه لم ير امرأة عارية أو بالتحديد شبه عارية إلا في السينما، حافظ على نفسه لكن حظه.

قال سعدي باعيسى إن مسألة الحظ هذه فيها نظر، كل مشكلة ولها حل، وما سمعه ليس جديدًا عليه، مثل هذه المشاكل تقع لأن العروسين لا يعرف كل منهما الآخر قبل الزواج، طبعا الظروف هنا لا تسمح لتقاليدنا وأخلاقنا .

قاطعه عبده البلغجي:

«ودينا».

أمن سعدي باعيسى مؤكدا: «وديننا»، ثم أتبع ذلك بقوله: «لا حياء في الدين..». قال إن عبد المقصود ليس غريبا، وهؤلاء الجالسون مثل إخوته، ويتمنون له حظًّا طيبًا، والهناء كله مع عروسه الجميلة، قال إنه يقترح عليه أن يتوكل على الله وأن يذهب الآن، وكما قال له عبد المقصود أفندي أمس الأول فليأخذها باللين، والرفق، يسايسها يعني، ما ذكره عن تدفق مائها يعني أنها أنثى صالحة للحدث، قال سعدي باعيسى مخفضا صوته: إن الوصول إلى المراد له طرق مختلفة، كيف يأتيها؟

عندئذ انطلق عبده وكأنه كان ينتظر، قال إنه نبه عليها أن تنتظره في ملابس النوم، لماذا؟ لأنها أول يوم حاولت المداعبة، فوجئ عند عودته من الشغل بها تفتح له الباب، وعندما أغلقه كانت تقف خلفه عارية كما ولدتها أمها، لكنه لم يعجبه ذلك، شدد عليها أن تنتظره في ملابس النوم، اشترى من الموسكي «أطقم مختلفة»، سراويل مختلف ألوانها ومشدات، وقمصانا قصيرة يحبها، رآها في فيلم السابحات الفاتنات بطولة إستر ويليامز، يا سلام.. لكم أثارته في رداء البحر.

ارتفع صوت عبده البلغجي، نزل صمت على الجميع، اتجهت إليه جميع الأبصار حتى سعادة المستشار لم يفت عبد المقصود أفندي أنه ابتلع ريقه مرتين، قال سعدي باعيسى إنه ينصح بالوضع الخلفي، أن يأتيها من الخلف، لا..لا يقصد، ليس من حيث نهى الله، إنما في المسلك الطبيعي، قال: إن الجسم في هذا الوضع

يكون متهيئا، متفتحا أكثر، إنه الوضع الأصلي لكن الإنسان خالف كل الحيوانات وبدل وعدل، لكنه الأفضل لإمكانية الحمل، راح سعدي باعيسى يتحدث بالتفصيل عن أفضال هذا الوضع، وبدا عبده مستغرقا مستثارا، حتى أنه قام فجأة منصرفا ولم يسمع سعدي باعيسى عندما قال إنه إذا لم يوفق، فيعرف صاحبًا عزيزًا عيادته ناحية العتبة الخضراء، متخصص في علاج مثل هذه الحالات.

يوليو ٢٠٠٢

المأوى القديم

عم عمرو لم يره عند خروجه من اللوكاندة، لمح عبد المقصود أفندي يقف أمام محل البقالة المجاور، أسرع الخطى، يشد أطراف جاكتته، يتوقف أوتوبيس مدارس أزرق اللون، يطلع إليه ثلاثة صغار، يتزايد زحام الواقفين فوق رصيف المحطة، سيدات أعددن زينتهن على عجل، امرأة بدينة تحدث ضجة، الوجوه تقريبا لم تتغير، عمر بأكمله قضاه يركب نفس المواصلة، يعرف في أي المحطات سينزل هذا الأفندي المتأنق، سمعه يتبادل حديثا منذ عامين، عرف أنه موظف بوزارة الأوقاف، هذا الرجل النحيل يبدو بملامحه كأنه يوشك على بكاء طويلٍ لن يتوقف أبدًا، تتغير وجوه الطلبة، يذكر شابا قصيرًا، رآه تلميذًا يرتدي قمصانًا ملوثة ببقع حبر، ثم طالبا جامعيًّا، يركب الأوتوبيس حتى نهاية الخط بالجيزة، يتبادل التحية مع زميلاته، يتخلى لهن عن مقعده، منذ ثلاثة أعوام رآه يرتدي ثيابا جديدة، يحمل حقيبة سوداء صغيرة، توحي بخطورة ما تحويه، منذ شهور لم يره، يتذكره الآن، ربما نقل، سافر، انتقل إلى حي آخر، الآن ينظر إلى الواقفين، لن يركب معهم، لم يقل لعم عمرو ما طرأ على عاداته اليومية، أو عبد المقصود أفندي، أي

نعمة يعيشها؟؟ يمضي إلى أي مكان في ساعات الصباح، يتجول في الحدائق، يمشي في العاشرة صباحًا عبر طرقات الضواحي الهادئة، ينتقل من مقهى إلى آخر، يركب أي أوتوبيس، يمضي حتى نهاية الخط ويرجع، يمكنه الصياح عاليا، يقلب المألوف، يمشي على يديه، يتعلق بالعربات، يقترب من هذه الفتاة، شفقية الوجه، يمد يده مداعبًا وجنتها، يلاطفها، يدغدغ إبطي هذه السيدة الوقور، لا قيود تشده الآن، فك إساره، على الناحية المقابلة عربة يتجمع حولها رجال وشبان، يمسكون أطباق الكسكسي، صبية عاملون في مصانع، يأكلون بسرعة، يخلطون ما في الأطباق، ترتفع الملاعق إلى الأفواه، منذ شهور لم يقدر على الوقوف بينهم أو تناول الإفطار على عربة عم حسني بائع الفول أمام جامع سيدي مرزوق، موظف قديم بقلم السكرتارية، يجب أن يحتفظ باحترامه، دائما يلازمه خاطر، ماذا جرى لو رآه أحد رؤسائه، كيف يداري ارتباكه، أي تفسير يقدمه؟ عم عمرو خادم اللوكاندة يوجه إليه لومًا خفيا، تقريعا صامتًا من عينيه الواسعتين، الآن، سيقف، يطلب بصوت عالٍ يسمعه الجميع، طبقا مليئا بالكسكسي، لا.. لن يكتفي بهذا، إنما سيزعق بعد قليل مطالبا البائع بإضافة قليل من اللبن، يأكل متلذذًا، متمهلاً ، لن يعبأ بأحد، أكثر من هذا، يمكنه النظر مددًا غير محدودة إلى هذه الفتاة، يخطو مقتربا منها، تحتضن إلى صدرها حقيبة تطل منها أطراف كراسات، الأنف دقيق، شعرها يغطي مؤخرة العنق، ليرقبه من يشاء أثناء تأمله لشعرها، صدرها البكر الجموح، يضج بصخب خفي، فوق القميص تستلقي شارة المدرسة، يخفق قلبه مبتلا بنشوة غامضة، تشده هذه المرحلة من العمر، يرق قلبه لمرأى

الزي المدرسي، عمر ناءٍ بعيد ومفتقد، بأسى رأى سنين عديدة تفصلهما، تثقل ما يود الإفصاح عنه...

غريب أن عم عمرو لم يبد تعليقا حتى الآن، ثلاثة وثلاثون عاما يطرق عليه الباب يوميًّا، تمام السادسة والنصف، طوال هذا العمر، لم يعرف متى ينام عم عمرو، ومتى يصحو بالضبط، لكنه يعرف أنه يصلي الفجر في مسجد الحسين، لو أدركه أرق، لو نزل إلى صالة الفندق الضيقة، تحت لوحة الإعلانات عن أسعار المبيت، يلقاه جالسًا جاحظ العينين متطلعا إلى الفراغ، بينما يعلو شخير عبد المقصود أفندي. يوميًّا يدخل عليه بصينية تبدلت مرات عدة، عشر سنوات متتالية تخللتها الحرب العالمية لم تتغير، نحاسية، صفراء، منقوشة بأغصان وأوراق زخرفية، يطل منها ما يشبه وجهًا آدميًّا مطموس الملامح، عندما جاء عم عمرو بصينية ألومونيوم، ظنه أمرًا عارضًا، بعد أيام سبعة سأله، قال: إن المطعم الأول طلع في التنظيم، شوارع جديدة ستشق.

يأتي بالفول من مطعم آخر، لكن فوله لا يقل جودة عن المطعم الأول، سكت، وجهه يوحي بأن ثمة سبابًا سينطلق من فمه بعد لحظات، لماذا تسأل؟ ارتبك قليلا، هز رأسه، «أبدًا.. أبدًا»، أطرق عم عمرو، رفع رأسه، تخلت القسوة عن ملامحه، تتبدل مشاعره في لحظات، استدعى في ذهنه ما يقال عن مصاحبته للجن، هجرته المستمرة إلى عالمهم، لحظات إغفائه يتلقى أوامره منهم، ينفذها بدقة، يقال إنه متزوج هناك، قال:

«اللوكاندة طالعة في التنظيم».

سأل ملهوفا:

«متى»؟

هز عم عمرو رأسه، علم هذا عند الله، لكن المباني المحيطة بهم تعترض مشروعات التنظيم، حتما ستزال، متى؟ لايدري، عاد إلى جموده، يومها ضاق بسماعه للنبأ، إلى أين يمضي؟ تعود الإقامة هنا، سيبدو تغيير مكانه صعبا، لو أزالوا اللوكاندة فكأنهم ينتزعون نخاع عظامه، عموده الفقري، لكن سنوات مضت، واللوكاندة كما هي، نسي الأمر، إذ يتذكره بين الحين والحين، يضيق، يتكدر خاطره، لكنها مشروعات الحكومة التي تبقى حبرا على ورق، يتأخر القرار سنوات، في لحظة معينة ينفذ، ربما أعادوا النظر فتراجعوا، أو مهندس قدم المشروع الأصلي لينال مكافأة ثم ألقيت الأوراق في الأدراج، إنه عليم بطرق الإدارات الحكومية، ثم ما الحاجة الملحة لشق طريق جديد هنا؟ في البداية ظن حديث عم عمرو نبوءة أدركها بحسه الباطني ثم سمع من سعيد البقال المجاور، أن السبب في إيقاف المشروع عم عمرو ذاته، ما دام موجودًا فلن يرتفع معول هدم في البناء القديم، ستشل الأيدي، ويلقى المتسببون أضرارًا جسيمة، دائما يطلق التعاويذ، ينادي رفاقه من عالم الجن للذود عن البناء الذي قضى عمره فيه، الموضع الذي أسرى منه مرات إلى العالم الخفي حيث زوجته الجنية الفاتنة، في العامين الأخيرين لحظ تثاقلا في خطواته، بعد أيام أدركه وهن، لم يذهب إلى المصلحة، تمرد، قام عم عمرو باستدعاء طبيب الصحة، أحضر له الأدوية من الصيدلية القريبة، طابع تمغة ليلصقه بورقة

الإجازة، فك لفافة الأدوية، ناوله العلب الثلاث، جلس عند طرف السرير لأول مرة، بصوت حاد سأل:

«أي أدوية هذه؟».

«اتروميد اس يا عم عمرو.. لتصلب الشرايين، أما هذا...».

أصغى جادًا جاحظ العينين، قام فجأة..

ستأخذ قرصًا من هذا كل ست ساعات..

بالضبط يا عم عمرو..وهذا كل ثلاث ساعات..

في المواعيد تمامًا، يدفع باب الحجرة بقدمه، الباب لم يغلق أبدًا طوال إقامته باللوكاندة، يجيء، يأمر بصوت عال..

«قم.. خذ دواءك..».

لم يخطئ أبدًا، مع أنه لا يحمل ساعة، لم يسمعه يسأل عن الوقت، بعد عصر غامق، ضاقت فيه الحجرة، تقرحت جدرانها، دخل إليه يحمل راديو ترانزستور، اقترضه من أحد النزلاء..

«خذ.. تسل، أنت لا تخرج ولا تكلم أحدًا..».

في يوم الرقاد السابع، جاءه، مد إليه ورقة مثلثة، منتفخة قليلا، أسندها تحت الوسادة، بسط راحته فوق الجبهة الساخنة، تلا ألفاظا غريبة، ناجى مخلوقات غير مرئية، يعرف أن لديه كتابا قديما له حارس أبدي، يستقي منه علاج الأوجاع والأمراض، ويحوي قسما يضم كل ما جري من وقائع وأحداث، ينبئ عما هو آت.. ما سيجري لكل مستفسر، بالتأكيد، يعلم لحظة زوال اللوكاندة، يود

لو يجيبه، يطمئنه، سيقول له: مفارقة اللوكاندة أمر صعب، سنوات حياتي ستتبعثر، الحجرة الضيقة تلملم أيامي، الآن.. يخشى أن يستفسره عما استجد عليه، مهما طال صمته سينطق في لحظة بعينها، سيقف عندئذ خجلا كطفل، يناديه يا عم عمرو.. مع أنه يقاربه سنًّا، يبدو مشبعا بالحيوية، يطلع طوابق اللوكاندة مرات، يدخل كل الحجرات، يفرش الملاءات، ينفض الوسائد، يكنس البلاط المربع القديم في الصباح، في ساعات الليل المختلفة، يوقظ النزلاء الريفيين ليلحقوا رحيل القطارات، يعرف مواعيدها، وأجور السفر إلى بلاد القطر، مواعيد الوصول إلى كل بلدة، محافظة أو مركز،أو قرية صغيرة نائية يقف بها قطار بطيء، يسألونه عن أماكن أولياء الله، يدلهم، يذكرطريقة الوصول، يحفظ أرقام سيارات النقل العام، ما تغير منها وما تبدل، لا تعرف ساعات نومه، أين ينام؟ يقينًا لا توجد غرفة مخصصة لعم عمرو، منذ سنوات طلع فوق السطح، كل ما وجده أسرة حديدية قديمة، بقايا أثاث، مراتب مبقورة تنزف قطنًا، مكانس وجرادل فارغة، أوعية صاج تقشر طلاؤها، أي وقت يقوم يلقاه مستيقظًا، لحظات اجتيازه الممر المكشوف إلى دورة المياه في الناحية المقابلة، قضى عمره يتبول في مراحيض عمومية، تلامس مؤخرته موضع الآخرين المجهولين، حجرته لا يحتفظ بمفتاحها في جيبه، يتركه لعم عمرو، في أيام مولد الحسين، مولد سيدي مرزوق، لاينام بمفرده فوق السرير، يجيء عم عمرو ممسكا يد شيخ عجوز جاء إلى مقام الشهيد سعيًا على قدميه من بلدة قصية، يتزحزح قليلا، يفسح موضعًا لنوم النزيل إلى جواره، لا يلفظ كلمة، يقضي الليالي بجوار غريب لا يعرفه، يتمتم بألفاظ

مبهمة، قد يأخذه الوجد في حشا الليل يقوم مفزوعا، ربما لا يتبادل مع شريك سريره كلمة واحدة، ويذكر رجالا حكوا له كل شيء عن أعمارهم، قص عليهم متاعبه، حكى همومه، ربما طاش خياله، فأنبأهم بما ينتظره من ثروة لا أول لها ولا آخر، ستدركه حتما بعد وفاة جده العجوز، والد أمه. أقسم ألا يفتح بيتًا حتى ينال الميراث، وها هو عمره يمضي في لوكاندة قديمة ينوي شراءها وهدمها ليقيم مكانها فندقًا مجانيًا لأولياء الله، إذ يلفظ نواياه عن هدمها، يأخذه ضيق، لماذا يتعجل المقدور؟.. يعرج بالحديث إلى شابة حلوة تنتظره، تفكر فيه ليلا ونهارًا، يأبى لقياها حتى ينال الميراث، يصغي سامعوه، تختلف التعبيرات فوق وجوههم، يرحلون بدون أن يعرف أسماءهم، في ليالٍ عديدة يوقظه عمرو، يطلب منه أن يلملم حاجياته القليلة، ينتقل إلى حجرة أقل اتساعا، ازدحمت اللوكاندة فجأة، يخلي مكانه، يتجه إلى مأواه الجديد، يثقله نعاس، تعود تغيير موضع نومه، لا يؤثر فيه اتجاه رأسه إلى اليمين أو الشمال، في لحظة خيل له أن عم عمرو لو أمره بالرقاد فوق رصيف يتوسط طريقا مزدحما، سيدركه النوم أيضًا، منذ سنوات لم ينتقل من هذه الحجرة، تضيق به، في أقصى الركن الأيمن منها بالوعة مستديرة قديمة، غطاؤها مثقوب، ربما استعملت الحجرة كمطبخ يومًا، أو دورة مياه، دائمًا يسمع همسًا يبدأ حوالي الثانية صباحًا، يدور بأسفل، لا يستطيع تبين مصدره، خليط من أصوات إناث ورجال، سلاسل حديدية تسحب، توقف عجلات مفاجئ، نقر طبل رهيف هين، ثم يتوقف كل صوت فجأة، تعود هنا ألا يستفسر عن كل شيء، منذ شهور بعد عودته من المصلحة قبل إحالته إلى المعاش بأيام،

جلس قريبا من مدخل اللوكاندة، نزل أربعة رجال سود، يلتحفون بعباءات بيضاء فضفاضة، يمسك كل منهم عصا طويلة، تبدو سيقانهم رفيعة ممصوصة، ابتسموا في وجهه، جلسوا على الدكة الخشبية المحاذية لمدخل اللوكاندة، نظروا إليه، صفقوا، أسرع عم عمرو إليهم، بدا فرحا بهم، انقبض قلبه، ماذا يجري لو جاءه أحد هؤلاء، طلب منه أن يفسح مكانا لينام بجواره؟ تبادلوا الحديث بلهجة غير مفهومة له، بين الحين والحين يتوقفون، ينظرون إليه، يرفعون أيديهم بالتحية له، جاء عم عمرو يحمل صينية فوقها أكواب شاي، وكوب به عيدان نعناع أخضر، أشار كبيرهم إليه، قدم إليه عم عمرو كوبا مملوءا بالشاي، حار، هل يعرفونه، لم يكتم السؤال، قال عم عمرو، مادمت تنام معهم في مبنى واحد ، أو تجلس أمامهم، وجبت التحية، وجد فرصة نادرة يبادل فيها عم عمرو الحديث، لاحقه بسؤال.. من هم، إنهم تجار جمال كبار من أقاصي السودان، يدخلون مصر في أي وقت يشاءون، بدون جوازات سفر، يسوقون قطعانهم عبر ممرات طويلة تتخلل الصحراء تصل البلدين، يذكرهم الآن برهبة، رحلوا فجأة ولم يستفسر، ود لو بادلهم الحديث، قال لكبيرهم: إنه لو ذاق متعة الجلوس على مقهى في تمام العاشرة منذ عشر سنوات لطلب إحالته إلى المعاش، هذا الوقت من النهار مات ثلاثين عامًا وأكثر بالنسبة له، كأنه يرى المكان لأول مرة، يتصايح أطفال، صغار يلعبون، يوشك أحدهم على السقوط، يرجف قلبه، يمد يده في الهواء، كثيرًا ما رأى ولدين يتشاجران، يفصل بينهما، فجأة يضحكان ثم ينطلقان بعيدًا عنه. عيال ، والعيال أحباب الله،لا يحاسبهم أحد عما يفعلون، يعاوده الآن وجه الفتاة الشفقي، تتوثب

مويجات في صدره، يراها تتحدث إليه، يصغى إلى مخارج ألفاظها، إيقاع كلماتها، يمد يده، يلمس أطراف شعرها، يلثم مقدمة جبينها، يسألها عن حاجتها من الكتب، الأقمشة، يسارع إلى الفتارين، يسأل سيدات واقفات عما ترغبه فتاة في السادسة عشرة، أي الألوان تناسبها، حتما يبدي عم عمرو سخرية، تنطق من جحوظ عينيه، لا يتبادل معه إلا كلمات معدودة، يعرف عنه كل شيء، في لحظة معينة يسأله، وقد ينزل به عقابًا..

ـ «شيشة وحياتك..».

ينفخ الجمرات، ينفث الدخان، يدركه خدر لذيذ، لم يدخن أبدًا، لا يخشى أحدًا الآن، لو يوجد مقهى أمام المصلحة لذهب إليه الآن، عندما تسلم خطاب خدمته، رأى حبالا غليظة شدته طويلا تتقطع، دارى الخواء الذي فاجأه بالمشي طويلاً، اشترى لبا وحمصًا، وعد نفسه بالنوم إلى ساعات متأخرة من النهار، السفر إلى الإسكندرية، رؤية البحر بالمكافأة الممنوحة له، الآن، يبدو اليوم طويلا يستدعي أياما نائية، يلجأ إلى بعضها، يلوذ بها، صابر أفندي يجذبه، منذ خمسة عشر عاما عبرا شارع الإمام إلى حارة صغيرة، أرضها مرشوشة بمياه غسيل والغروب عتيق، طلعا إلى «تفيدة»، حقق حلما سخيا شهيا، أن يغلق عليه باب حجرة ومعه امرأة، تتردد أنفاسها حارة ولهى في أذنيه، شدته إليها، همست في أذنه، «يا حبيبي..». جعلته يمشي خفيفا مرحًا، لا يتعثر في كدر أو أحزان، أول كل أسبوع يمضي إليها، رطل اللحمة والخضار، يتواثب طفلاها، ينحني «انتظرا.. انتظرا يا أولاد»، يعطيهما قروشًا، يذهبان إلى السينما القريبة، يغلق الباب، ترفع تفيدة عينين رخوتين،

تسأله عن حاله، تلمح ثقوبا في جواربه، تبدي غضبا، تضرب صدرها براحة يدها، تولي وجهها بعيدًا، إنها غاضبة منه، غاضبة جدًا، لا.. لن تكلمه، هل تنبهه إلى كل أمر من أموره، يعض شفته، تدور أصابعه حول بعضها، كيف التصرف؟ لا يدري كيف يواجه الغضب الأنثوي، تدور عيناه، السرير الحديدي، قفص الثياب، وابور البريموس أوعية الألمونيوم، يسر لاهتمامها به، يقبلها فجأة، يصغي مبهورًا إلى تسارع أنفاسها، هو الذي يستثير كوامنها، يبتعث خفاياها، يمد شفتيه إلى رقبتها كما نصحه زميله، تتأوه، تتوجع، ترجوه، تبدو كأنها تنفر مبتعدة، لكنها تحكم ضمه إليها، تداعب شعر صدره، مشى في الطرقات فرحًا، يود لو أوقف الأفندية، أولاد البلد، أخبرهم أنه منذ الآن توجد من تداعب شعره، تنفض جاكتته، تغسل ثيابه، يعود إلى اللوكاندة فرحًا، يبدو عم عمرو عالما بكل شيء، يحاول تجنب النظر إليه، الليلة يتمنى لو سأله: أين يتغيب الآن؟ يستفسر عن شئونه، اتخذه وليا لأموره من ناحيته هو، لو يسمع منه، ألم يدخر مبلغًا يفتح به دكانًا صغيرًا يبيع فيه الحلوى والكراسات وأقلام الرصاص والسجائر، كثيرون من أهالي الحي افتتحوا دكاكين صغيرة بعد تركهم خدمتهم الحكومية، أين يمضي الآن؟ ما أحوجه إلى تفيدة الآن، عرفها مبكرًا، يود لو عرفها في أيامه هذه، بالقرب منه شابان ينظران إلى رقعة الشطرنج، كل منهما يسند ذقنه إلى راحة يده، هل يقترب منهما، يتابع انتقال القطع فوق الرقعة؟ يجهل اللعبة، كيف يشارك بالنظر؟ يزعق بائع الخردوات المواجه، «أهلا.. أهلا». يجيب أحد المارة: «أهلا.. أهلا»....

فوق الدكة الخشبية المفروشة بجزء من حصيرة قديمة، يقعد عبد

المقصود أفندي، لم يعتد هذا، ما بال كل شيء يبدو غريبا؟ دائمًا يرى عبد المقصود وراء المكتب المجاور لدرابزين السلم، بجواره خزانة حديدية خضراء، قديمة، أمامه دفتر يدون فيه النزلاء، كل صفحة مختومة بخاتم الأمن، فوقه لافتة الأسعار، لوحة المفاتيح، مرآة في المواجهة، تحدها من أعلى لمبة نيون، عليها لوحة تمثل أسد الله الغالب، عليا بن أبي طالب، يقف إلى يمينه الحسين، وعن يساره الحسن، لم يمتد بينهما جسر الحديث، مع أنه يتبادل الضحكات مع النزلاء، تجار ومشايخ بلاد، وفقهاء يدرسون العلم في الأزهر، سنوات عديدة لم يدر هل هو أعزب أم متزوج، حتى اختفى ثلاثة أيام كاملة، عرف من عم عمرو أنه فقد ابنه، صعقته الكهرباء، عاد إلى اللوكاندة أشيب الشعر تماما، تقبل العزاء صامتا، لم يرد الألفاظ، انطوت عيناه على نظرة غريبة، وقيل إنه تلقى عزاءً من صاحب اللوكاندة المقيم في الخارج، لا يحضر إليها إلا نادرًا، لم يره قط إنما يسمع عنه، يذكر البعض أن عم عمرو رأى نذيرا بما جرى، شهد امرأة عبد المقصود المتوفاة من زمن، ترتدي البياض، تقف في واد سحيق كل ما فيه أبيض، تمد يديها، تتلقى رشدي ابنهما، تقبله، بعد أيام ثلاثة، سرت الكهرباء في جسده الشاب، لماذا يجلس أمام اللوكاندة، كأن الزبائن لن يأتوا قط.

ـ سلام عليكم..

يرفع عبد المقصود أفندي وجها غير حليق، كأنه تلقى ضربة هبطت برأسه بين كتفيه، أشار إلى المدخل، خطا داخل الباب باحثًا عن مقعد ليجاور الرجل، بادرة طيبة، سيتبادلان الحديث كثيرًا، ويتكلمان، سيعيد معه خلق السنين الماضيات،آه.. تراجع مفزوعا.

شد أطراف جاكتته، عم عمرو يقف مشدودًا عند بداية السلم، ضوء النهار هنا رمادي، لم يره أبدًا بهذه الهيئة، بدا غير مستعد لسماع تحية، أو تبادل سلام، يلمع بياض عينيه، سوادهما مجمد، كأنه رصد يمنع الطلوع، جسده أشد نحولا داخل فانلته وسرواله، خطر له أن يسأله: ملك؟ جموده أخرسه، تراجع خارجًا، من مذياع قريب تدق إشارة أخبار الثانية والنصف، خرج الموظفون من نصف ساعة، يبدو ميدان التحرير جهمًا، منذ سنوات ، أمام المصلحة، تقف عربة الأوتوبيس، شبه خالية من الركاب، يبدأون الصعود، إذ تمتلئ نصف المقاعد تقريبًا، يصيح أحد الركاب: «اطلع يا اسطى والنبي». يجيب: «انتظروا.. العربة لم تمتلئ..». يذكر زحام المحطة الصباحي، تدافع الرجال والنساء .. أين أيام مشيه في الطرقات الخالية، مدخل طيب للحديث..

ـ هيه.. أيامنا لن تعوض..

يلقى صدًّا، تنوء الظهيرة بوحشة، عبد المقصود أفندي على وشك العويل، بصمته يرثى الأيام النائية، يدهمه خواء، لا يتوقف أحد المارة، لا يلتفت إنسان، لماذا يقف عم عمرو حارسًا أسطوريًا يصعق من يحاول الصعود، الآن.. يرى نفسه متداعيا، آيلا للسقوط، بلا دعامة تسنده، بلا آمال في وقوع ما هو أفضل في المستقبل القريب، تجاوز المستقبل ذاته، يمنعه عم عمرو من الطلوع، تنأى غرفته ذات السرير الواحد، السقف المصلوب بأعمدة خشبية، نافذة تطل على فراغ ضيق، أمامه جدار بيت خلفي، كل ما يستطيعه، عد الطوب، متابعة فأر يجري بين الشقوق، عم عمرو تجمد واقفا، كأنه لن يحمل الإفطار إلى النزلاء، لن يتبادل حديثا مقتضبا مع مشايخ

البلدان، وأهالي الأرياف، يسأل عمن لم يرهم منذ فترة، إذ يعلو صوته، «أبلغوه سلامي قولوا له أوحشتنا»، أو يقول باختصار: «إنا لله وإنا إليه راجعون.. كان طيبا».

ـ ألم تسمع بما جرى؟

يعود عبد المقصود أفندي إلى صمته:

ـ أبدا..

لم يقل له أحد خبرًا، لم يصغ إلى حديث بين اثنين يمكن منه استنتاج ما جرى، بدا صمت عبد المقصود أفندي أبديًا، في هذه اللحظة اقشعر جلده، أصبح عبد المقصود أفندي يشير إلى مبنى اللوكاندة القديم، يغوص على مهل في قلبه...

١٩٧٢

تمام .. تمام

عندما سألته عن رأيه، قال بدون تردد: كله تمام..

لم يشأ أن تبدو منه أي علامة تدل على ضيق أو تَبرُّم أو حتى مجرد ملحوظة سلبية، يعرف أن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إليها، ولو أن القدرة كافية لما تنازلت عن موقع حميم شغلته أكثر من ثلاثة عقود، الأولاد أنفسهم الذين امتعضوا منذ سنوات لفكرة الاستعانة بطاهٍ أو طاهية يجيء مرة أو مرتين في الأسبوع هم الذين ألحوا خلالَ الشهر الأخير، عندما لاحظوا إعياءها، وشحوب وجهها، واضطرارها للجلوس إلى مقعد بدون مسند في المطبخ، وهذا حال نادر، فلم يرها في هذا الحيز الضيق إلا واقفة، كثيرا ما ردد أمام بعضٍ معارفه الحميمين، الأولاد اعتادوا أكل أمهم، لا يرضون عنه بديلاً.

الخميس، أمس، نهاية الأسبوع، يعود إلى البيت متأخرًا، نهاية شوط طويل من الإرهاق والإجهاد، عندما اجتاز عتبة المدخل استشعر وجود شخص غريب، بدا ذلك من رد فعلها ودرجة صوتها التي يعرفها عند وجود الشغالة، لكن.. ما الذي سيبقي الشغالة حتى

الآن؟ قالت إنها الطباخة، تعمل عند أسرة صاحب ابنهما الأكبر، ستجيء مرتين أسبوعيا، قالت إن طعامه المسلوق سيعد تماما كما اعتاده.

«فهمتها على كل حاجة..».

لم يعلق، تمضي حياتهم بهدوء، عند تغير شيء ولو يسير يضطرب أمره، إنه حريص ألا يصلها منه ما يكدرها، أو يثير نفرة غير مستحبة، عرف مذاقات شتى، تبدلت به الأحوال، إذا رآه من يجهله أثناء تناوله الطعام في أحد المطاعم الباريسية القديمة التي يعرفها ويفضلها ويتردد عليها أثناء أسفاره السريعة ويقيم ببعض العاملين بها الصلات، يظن أنه وريث عائلة عريقة ثرية، لكنه يستمتع بنفس القدر إذا وُجد أمامه رغيف بلدي طازج وقطعة جبن دمياطي معبأة في براميل خشبية، شعاره دائما الاستمتاع بالطعام الجيد إذا وُجد، إذا توفر الظرف، اعتاد التكيف مع الأحوال، يأكل ليسكت جوعا، ليأتنس، أو ليتذوق ويستمتع، هل يمكن القول إن الأحوال تستوي عنده؟ طبعا لا، لكنه اكتسب القدرة على التكيف منذ زمن اعتقاله، إقدامه على أكل طبيخ السجن فاقد الملامح، منعدم الطعم، بالتأكيد اعتاد على طريقتها في الطهي، لا.. ليست مهارة، ثمة شيء آخر يصعب توصيفه، بدءًا من إعداد وجبة عشاء بسيطة التركيب، بيض مقلي، قطع جبن، مخلل، خبز محمص، وحتى الأصناف المعقدة التي أتقنتها من والدتها التي تفننت في أصناف ورثتها عن أمها، عن جدتها، مثل شوربة السمك، غير أن المعيار والقياس يبدأ وينتهي عند الملوخية الخضراء، والأرز المفلفل، الأرز بالذات، تلك الحميمية وذلك التأهب قبل الجلوس إلى الأطباق الساخنة، الطعام الحميم

لا بد أن يكون ساخنًا، هكذا اعتاد دائما، مع استعادته لحظات الالتئام حول غداء أو عشاء يدرك أن متغيرًا كبيرا جرى، يتسق مع ذلك الإدراك ببلوغ مراحل متقدمة من سفر طويل، طهيها يتسق مع ترتيب البيت، مع لون الضوء، مع الستائر المسدلة التي يهن عبرها ضوء الصيف الحاد، رائحة التقلية علامة السكينة، ومضى كل شيء بدون بغتات حادة أو مقلقلات، متلائم مع طلة الأحباب من أطر الصور، مع المراحل التي اجتازاها معًا، هنا، هناك، من خلالهما تلتئم الأماكن النائية، وتذوي الكدورات، ويلوح الصفح الجميل.

في سفر قديم ضمهما معًا، تناولا عشاءهما مع صاحب حميم في مطعم قريب من بيته، قال إنه من المطاعم التي يطلق عليها الفرنسيون مطاعم الحي، كل من يأكل فيها معروف، كان مديره وطاهيه زوج تلك الحسناء الرشيقة، بديعة الصرح، التي تقوم بمفردها على خدمة الزبائن، لم يخف إعجابه، قالت إنها تعتبر ذلك من حقه وطالبته بأن يجري عادته، فإذا لفت نظره أنثى أو شخص ما يطلق عليه اسما أو لقبا، قال إنه بعد تفكير يسميها جوزفين، أما اللقب فلها الكونتيسة، لم يرجعا إلى المكان مرة أخرى، بعد أكثر من ربع قرن يذكرانها باسم الكونتيسة، كانت ترتدي قميصا أبيض شفافًا، تلوح من رهافته حمالتا مشدها، أثناء تأمله قائمة الطعام، قالت إن الأصناف كلها من الجنوب، أعجبه المرق الغامق بني اللون، بعد عودتهما، بعد حوالي شهر، قالت في مستهل ليلة صفو إنها ستقدم إليه الليلة بعض ما أعجبه في مطعم الكونتيسة، داعبها قائلا: إنهما لم يصلا بعد إلى حد استدعاء الوجبات من باريس، قالت: سنرى.

فوجئ بالمرق بني اللون، تتخلله قطع اللحم المتساوية، بحذق

دافئ، يشق عليه أن يدرك وهنها، لا تفصح عن إعيائها إلا بصعوبة، كثيرا ما يعتب عليها، تهمس من خلال إنهاكها أنها لا تريد أن تسبب للأولاد جزعًا، هذه المرة الأولاد أنفسهم هم الذين قرروا الاستعانة بطاهية..

لمحها عند عبوره أمام المطبخ، طويلة، تقف أمام المنضدة المغطاة بالرخام، انحناءتها ونظرها إلى الخضار الذي يتم تجهيزه مختلف، اعتاد دائما رؤية وضع معين يرتبط بهذا المكان، بذلك الحيز، قالت إنها تطهي كميات قليلة، متنوعة، عندما وضعت أمامه الصينية كالعادة عندما يأكل منفردًا، تطلع إلى طبق البسلة، المرق، ملاعق الأرز الثلاث التي يتمهل كثيرا في مضغها، قطعة اللحم المشوية، لا يمكنه إحصاء المرات التي تناول غداءه أو عشاءه في مطاعم مختلفة مستوياتها، لم يتوقف طويلا عند المذاق هنا أو هناك، يكتشف الآن اختلاف الأمر، المطعم عابر، مؤقت، يمكنه تغييره في اليوم التالي، لكن البيت مغاير، البيت نسق، فليبدأ، يتنبه إلى وقوفها، تتطلع إليه قلقة:

«يهمني رأيك..».

يهز رأسه:

«تمام.. كله تمام..».

أبريل ٢٠٠٦

صورتها

عندما أطلعته على الصور، بقدر الإمكان حاول أن يخفي دهشته، نطق عبارات استحسان عامة، مبديا إعجابه بمهارة المصور الذي عرف كيف يختار الزوايا المناسبة، قالت إنها لأول مرة منذ سنوات تجلس أمام آلة تصوير عمدًا. بعد لحظات صمت، استأنفت قائلة إنها أرادت لكل منهما أن يحمل صورتها معه عند سفره.

قال مداعبا: وما أجملها من صورة.

تهز رأسها، يعرف أنها لا تتطرق إلى الدقائق التي يثيرها الحدث، يقول لها إن سفر الولد والبنت صعب، لكنه المسار الطبيعي للحياة، عليهما أن يبتهجا، أن يشعرا بالفرح، الولد الآن على عتبة الثلاثين، لكنه يكني عنه، وعن شقيقته بالولد والبنت. هي في الرابعة والعشرين، الولد يستعد للسفر إلى نيويورك، سيعمل في تلك المنظمة الدولية، الجميع يشهد له أنه وصل إلى تلك النتيجة بكده وجهده، تنتظره فرص عديدة في تلك المنظمة، البنت تفوقت على سائر المتقدمين في المنحة العلمية التي اجتازت كافة المراحل المؤدية إليها، أكثر من جامعة تنافست على قبولها، اختارت جامعة

لندن للعلوم السياسية، ستقضي سنة هناك، خلالها تعد رسالتها للحصول على درجة الماجستير، هكذا يفتح لها أفقا مغايرًا بخلاف عملها الحالي.

يقول لها دائما:

«أنت صاحبة الفضل الأول..».

تطرق، لا تجيب، إنها تبدو طويلة الصمت خلال الأسابيع الأخيرة، يواصل الحديث كأنه يتكلم إلى نفسه.

«طبعا، أنا مشغول دائمًا، أنت ضحيت بالكثير في مجال عملك لتحميهما من مخاطر كثيرة في هذا الزمن الصعب..».

يرقب لواذها بالصمت، يفكر في لحظة اجتياز كل منهما بوابة السفر، سيبسافران خلال شهر واحد، فترة متقاربة، يعرف أن تلك الأيام ستكون صعبة عليها، يجب أن ينتبه، أن يخفف من ارتباطاته، ألا يفتعل المكوث معها، إنه أيضا في حاجة إليها، إلى صحبتها، إلى أحاديثهما الليلية كما كانا يتبادلانها في البداية، منذ فترة لا يمكنه تحديدها يغمره شعور هادئ بالسكينة، لا يدري، هل هذا الحال مرتبط بتجاوزه سن التقاعد، بلوغه الستين منذ شهور، يمر بأماكن مألوفة فكأنه لن يحل بها ثانية، ترد على ذاكرته عناوين كتب قرأها وهام بمضامينها في مطلع مشواره، يدرك الآن استحالة عودته إلى قراءتها مرة ثانية، يشغله ترتيب ما يكون أكثر من الإعداد للآتي، يتلفت وراءه أكثر مما يتطلع أمامه، أينما ولَّى، أينما حلّ، ثمة وعي حاد ببلوغه مرحلة أخيرة من رحلة، إحساس المسافر الذي يتأهب

للنزول في محطة الوصول، لكم مرَّ بتلك الحال أثناء أسفاره، لم ينتبه إلى رمزيتها، إلى إمكانية بلوغ العمر نفسه حميم الظرف.

يتأمل صورها الثلاث، هكذا عرفها منذ اثنين وثلاثين عامًا، لو لا أنها تقف في مكتبها الذي يعرفه جيدًا، لو لا أن صحفًا مبسوطة فوقه تحمل عناوين الأيام الماضية، لو لا أنها ترتدي ذلك الفستان الوردي المرصع بزخارف الكمثرى الكشميرية، وزهور السوسن الدقيقة، لم ترتده إلا أول أمس، لولا هذا كله لشك فيما عنده، لأيقن أنه يواجه البنت الجميلة التي لفتت نظره بثراء حضورها، وزهو طلتها، وغزارة عينيها، وثراء الأنوثة عبر شفتيها.

تلك وقفتها عندما تريد أن تفضي بأمر هام على جانب كبير من الحساسية تلك إطراقتها عند طواف لحظة حميمة، أو خضوعها لهبوب، تلك نظرتها المتطلعة إلى ما لا يمكن تحديده.

ملكية الحضور، كثيرا ما ناداها «جلالة الملكة..»، تجيب وقتئذ بدلال: «لا يا شيخ..»، من يراها في الصورة الملتقطة أول أمس تختلف عن تلك التي تسعى في البيت الآن، الفارق بينهما واضح له، أي مصور هذا ألغى فارق السن، ما ترتبت عليه الرحلة الطويلة، كيف استعادت العينان تطلعهما إلى الآتي؟ مع أنهما الآن تفيضان بالشجن، في مرة نادرة منذ شهور قالت إنها تخشى الوحدة عند سفر الولد والبنت، لم يتأكدا بعد من نتائج السعي، قال بعتاب إنها لن تكون وحيدة، قالت كأنها تقرر أمرًا: لكن.. عندك مشاغلك..

منذ يومين قالت إنهما يجب أن يحرصا أكثر من أي وقت مضى على تناول وجبة واحدة معًا يوميا، إذا تعذر الغداء فليحرصا على

العشاء، ثم قالت بعد لحيظات من الصمت، إنها أحبت دومًا إعداد العشاء، من كان يظن أن البيض بالبسطرمة وتسخين الخبز، وغلي اللبن، وتقطيع الجبن يمكن أن يثير هذا كله، لم يجبها، لم يعلق، كل ما يمكن أن يقوله سيبدو فارغًا، ينحني لمشاعرها، ما تخفيه أكثر، يقول إنهما سيعودان أفضل مما ذهبا، تطرق صامتة، بعد ثلاثة أيام تقول إنها تدعو لهما من قلبها، لكن من سيسافران ليس هما من سيرجعان، سينقصان أشياء ويكتسبان أشياء، يقول إنها الحياة، تقول إنهما حياتها!

يومئ راضخًا، فليتقبل ما يبدو منها، حتى لو خيل له أنها تستهدفه بشكل ما، يعرف أنها تخشى الوحدة، لم يكن في حياتها إلا هما، لم يعرف لها صداقات بأخريات، لم تخبره يوما أنها ستذهب إلى السينما أو المسرح مع صاحبة لها، قليلة جدا تلك الزيارات التي جرت من زميلات دراسة، أو عمل، كذلك هو، انغمس كل منهما في تدبير الحياة، لكن عليه أن يعترف أنها بذلت من أجلهما الأكثر، حياتها بامتداداتها المختلفة، لذلك عندما واجهت لحظة قصدت تثبيتها ليطالعها كل منهما في غربته، أثناء بعدهما عنها، استعادت بهاءها الأول، كل ما تشظى منها تعيد التئامه حتى يرياها بالصورة التي تريدها وليس كما تبدو عليه الآن، هكذا تطالعه عيناها اللتان عشق الإبحار فيهما خلال حميمية لحظاتهما..

أبريل ٢٠٠٦

مكتب

اكتمل نقل الأثاث والأوراق إلى المبنى الذي أعيدت صياغته، فبدا كأنه مشيد بالأمس، مع أن عمره لا يقل عن قرن كامل، شيده أحد باشوات الزمن القديم، أمضى فيه عمرًا وجرت حيوات شتى إلى أن تحول إلى مقر لجريدة معبرة عن أقلية سياسية توقفت قبل الثورة، ثم أصبح مقرًا لجريدة « المساء»، الوحيدة من نوعها طوال الخمسينيات والستينيات، إلى أن انتقلت إلى دار التحرير، هكذا بدأت وحدة المبنى، أصبح مخزنًا مهجورًا يتبع دار نشر حكومية، ولأنه غير مستخدم، لا يدخله ولا يخرج منه أحد، غاب كثيرا عن الحضور في الشارع، أصبح عمارة صامتة، مهملة، معرضة للبلى، بل إنني لم ألحظ وجوده طوال سنوات مكوثي الخمس والعشرين في المبنى المجاور الذي يعلو ارتفاعه ضعفين، في الطابق الثامن منه مكثت ربع قرن.

إن مكان مكتبي وحجمه ونوعه يتضمن إشارة إلى مراحل التقدم والترقي في عملي بالمؤسسة خلال ما يقارب الأربعين عامًا، سنوات عديدة أمضيتها جالسًا في صالة تتجاور فيها المكاتب،

لا خصوصية، ولا بد من الحديث همسا في الهاتف الذي يتطلع إليه الآخرون متعجلين إنهاء المكالمة، عندما أصبحت مسئولا عن أحد أنشطة العمل تقرر إفراد غرفة خاصة بي، لكن لازدحام المبنى وكثرة عدد العاملين وتعدد المسئولين، نقل إليّ المشرف الإداري قرار رئيس مجلس الإدارة بمشاركة مسئول عن فرع آخر للغرفة، لا يعني هذا جلوسنا في نفس الوقت، سيوضع مكتبه في مواجهة مكتبي، سيأتي في المساء، من طبيعة عمله متابعة العروض المسرحية والفنية الليلية، لا يصل إلا بعد السادسة مساء، بينما جل نشاطي نهاري، أبدأ مبكرًا في التاسعة صباحًا، أنصرف في الثالثة أو الرابعة عدا يومي الثلاثاء والأربعاء ربما أتجاوز السادسة.

عندما صدر القرار، اتصل بي زميلي المسائي، قال إنه يعرض أمرًا، أليس من الأفضل وجود مكتب واحد بدلا من اثنين، خاصة أننا لن نجتمع، يمكن تخصيص الأدراج اليمنى لي واليسرى له، أو العكس كما أرغب، إن صلته بالإدارة جيدة، لذلك يمكنه إحضار أريكة وثيرة توضع في المواجهة لجلوس الضيوف، قال إن غرفة تضم مكتبًا واحدًا تختلف تمامًا عن غرفة تضم اثنين، هكذا يكون مظهر كل منا أفضل وأقوى، أصغيت بهدوء، وافقت، لم تكن المظاهر لتعنيني على الإطلاق ولا تزال، حتى عند الانتقال إلى المبنى المعادة صياغته، قال مدير الشئون الإدارية إنه تقرر شراء مكتب أكبر، يتسع لجهاز حاسب آلي بمستلزماته، أشرت بيدي: إنني أفضل مكتبي القديم.

مط شفتيه معترضًا:

«مع الوضع الجديد لم يعد يليق بك..».

قلت مداعبا:

«إنك تعمل لغيري، لم يتبق إلا شهور وأصل سن التقاعد..».

يؤكد: إن قرار المد قد أرسل إلى المجلس الأعلى، الموافقة مفروغ منها، أمامي خمس سنوات، هكذا تقضي اللائحة، خلال المدة يتم التجديد في موعد معلوم كل سنة، قلت: «ياعالِم..». دعا لي الرجل بالصحة وطول العمر.

أستعيد سنواتي برفقة زميلي المسائي، لم أره إلا قليلا، مرات معدودات، في الصباح أرى آثاره، على سطح المكتب.. أوراق صحف مدببة يستخدمها لتنظيف أذنيه، أمسك بمنديل ورقي، ألتقطها، ألقيها في السلة، أذكر الساعي بضرورة مراعاة إزالتها، أرص أوراقي من جديد، أزيلها، أخفيها قبل انصرافي، المقعد الوثير في مواجهتي، لا أعرف ماذا يجري عليه ليلاً، زميلي قديم الصلة بالوسط الفني، تتردد تفاصيل عديدة حول علاقاته بممثلات ومطربات، بعضهن شهيرات وأخريات في المقتبل، يترددن عليه ليلا، أتذكر الآن إخفاءه عينيه خلف نظارة سوداء حتى في الليل، لم أر حدقتيه قط، لماذا أستعيد ذلك عند اتجاهي إلى مكتبي الجديد؟ أخطروني أنه جاهز، معد لاستقبالي.

مدخل البناء فسيح مكسو برخام أبيض مبرقش بالأسود، الأعمدة الحاملة كسيت بالمرايا، أعمدة أخرى رومانية الطراز مضافة للزينة، للإيهام، يقف أفراد من شركة أمن خاصة، يرتدي كل منهم رداء أزرق عليه شارة بشكل دائري يتخلله مثلث أحمر، يقفون

على مسافات متساوية، غير مزودين بأي سلاح، يبدو وجودهم استعراضيًّا أكثر منه لضرورة ما.

المصعد بطيء، يقول العامل إنه سريع، لكن المبنى لا يتحمل، أقطع الممر الطويل المؤدي إلى غرفة المكتب، أقف عند مدخلها. أفاجأ باتساعها، الأرضية مغطاة بأخشاب مصقولة، متداخلة سابقة التجهيز، يقول المسئول الإداري الذي فوجئت به إلى جواري:

«سنفرش سجادة في المنتصف تليق..».

قلت: إن عُري الأرضية يوحي بالخلاء، تطلع إليّ مستبهمًا، متسائلاً، تمتم بما يعني ضرورة فرش الأرضية بما يليق أمام الزوار الأجانب.

يقول: إن المكتبة ستغطي الجدار الأيمن كله، سيتم تركيبها خلال أيام، هل ثمة حاجة إلى مكتبة أخرى في المواجهة؟

أتطلع إليه، هل يسألني أنا أم يستفسر من أجل القادم بعدي؟

فبراير ٢٠٠٧

نـــوم

لا أعرف متى بدأ ذلك؟ أحيانًا ننتبه إلى العرض غير المألوف بمجرد وقوعه، تظل المرة الأولى محددة، جلية، نستعيد نشوءها، بزوغها المفاجئ، تعجبنا، تفحصنا، غير أن الغالب، الأعم انتباهنا بعد التكرار، لا يمكن تعيين لحظة، أو تحديد يوم، بالقياس إلى كافة ما عرفته هذا مستجد على ذلك أن نومي عسر، لا ألجه إلا بعد وقت غير قليل، أحيانًا أتقلب لأكثر من ساعتين بينما ينشط ذهني وتتوالي الصور وتتزاحم المشاريع، يستنفر كل ما تم تأجيله يشتد ذلك خاصة عندما أكون مضطرا للاستيقاظ في وقت محدد مبكر لسفر أو قضاء حاجة لا يمكن التراجع عنها أو موعد يقتضي عناية وترتيبًا. اما أن أسند رأسي إلى الوسادة وأروح على الفور في النعاس فهذا ما لم أعرفه حتى زمن مكوثي في المستشفيات التي اضطررت إلى قضاء أوقات فيها، لم أعرف هذا إلا في الشهور الأخيرة، يمكن القول بعد أن بدل الطبيب أنواع الدواء الخاصة بالشرايين: هل للأمر علاقة؟

ربما، لم أستفسر بعد لغياب الدكتور في سفر طويل، أنتظر عودته، لا أثق إلا به، لا أفضل تعدد الجهات التي ألجأ إليها في أمور تتصل بي. في تلك الفترة التي تتراجع الآن مبتعدة بدأت ألاحظ قصر المدة التي أسلكها صوب الغفو، لم أعد أعاني التقلب وتغيير وضع الوسادة والتردد مرات على دورة المياه لإفراغ ولو قطرة أشتبه وجودها في مثانتي. ارتحت إلى ذلك. إلى اختفاء المعاناة التي كانت تؤرقني والتي دفعت بي إلى التردد دائما. إنني لم أعرف النوم طوال ستين عامًا إلا مرتين أستعيدهما دائمًا، الأولى عندما أمضيت في الشتاء السكندري أسبوعين متدربًا في معهد دراسي، كان ذلك عام أربعة أو خمسة وستين في سيدي بشر، كان ممكنًا رؤية البحر من نافذة حجرتي المسدل عليها ستائر بلون الحليب، كما المبنى في نهاية الطريق الخالي في ذلك الوقت من الخريف، قرب الشتاء، عمارات خالية وشوارع نظيفة خلو تمامًا من الضجيج وبحر يمتد بوجودي إلى حيث لا أدري ولا يمكنني التعيين، لن أنسى ابدًا الهدوء الذي دثرني، والاستيقاظ نشطًا متوثبًا كأنني أقدم من جديد، المرة الثانية في مدينة بون استضافني طلبة يقيمون في بناية قديمة، شقة فسيحة، غرفة مرتفعة الأسقف، فوق الأرض أغطية ومفارش وتكون مرقدًا وثيرًا متصلاً بالأرض مباشرة، طلبت الراحة قبل توجهنا إلى الجامعة، دخلت وتمددت في الرابعة، استغرقني نوم عميق، بصعوبة استيقظت على نداءات طالبتين دخلتا الغرفة ويبدو أنهما لاقتا صعوبة في إيقاظي، أستعيد استغراقي الذي لم أعرف له مثيلاً وتمرغي عند تمام صحوي وطلبي الخجول منهما أن يدعاني بمفردي قليلاً حتى أتمكن من

الصحو، قالت إحداهما إن الوقت ضيق جدًّا، والمواعيد صارمة، الناس ينتظرون فيما عدا ذلك لم أعرف النوم العميق، دائمًا أمضي بنقصاني، عدم كفايتي منه، أردد خلال السنوات الماضية إنني في حاجة إلى الاستغراق، لذلك لا بد من التقاعد، غير أنني لم أجرؤ على تنفيذ ما نويته لاسباب يطول شرحها، غير أنني عندما انتبهت إلى رحيلي السريع إلى النوم ارتحت إلى ذلك في البداية، غير أنني بدأت أقلق عندما لاحظت تزايد تثاقلي، عادة كان ينقصني وقت معلوم ما بين استيقاظي واكتمال افاقتي، لنقل ساعة حتى ساعتين، غير أن ذلك التثاقل يصحبني حتى وصولي إلى المكتب، أحط، فوق المقعد ولا أقعد أتحرك على مهل وكأنني التزم محاكاة التصوير البطيء، أقاوم رغبة في استئناف الإغفاءة، بدأت أتنبه إلى دخولي حال لم أعرفه من قبل، عندما يزداد ثقل جفوني ويبدو أمري كأني أحمل أثقالا فوق رأسي تزيدها قوة غامضة، مجهولة، أقوم لأغلق باب المكتب. أعود لأسند رأسي إلى ذراعي، أروح في النوم على الفور رغم أن الجلسة غير مريحة. وجسدي منحنٍ إلى أقصي حد، أستيقظ على رنين الهاتف ألحظ قطرات لعابيً التي سالت غصبًا عني، امسحها افرك حدقتي، أفتح الباب لأستقبل ضيفًا جاء يستفسر عن بعض آرائي في الأحوال السارية التي لم أعد معنيًا بها. أطالع ما كان يستنفوني من قبل وكأني أقرأ أو أرى من وراء زجاج خفي فلا صلة ولا رابط إلا ما يبدأ من الدم وينتهي إليه.

أصعد السلم المؤدي إلى الطابق الذي أقيم فيه متمهلاً، لا تعنيني المدة التي أستغرقها، ما أدهشني إنني أدنو من الإغفاءة عند توقفي

ما بين الطوابق متلمسًا الراحة، لو اتبعت أمري لانحنيت مستندًا على الدرابزين وغفوت، في السنوات الماضية، بل حتى شهور قريبة ظننت أن عادة النوم فترة ما بعد الظهر قد ولت، فقد أتمدد على ظهري مغمض العينين، مستعيدًا أو مستدعيًا، استرخي قليلاً لأقوم مغادرًا إلى ما أنتويته وقررت الشروع فيه، هذا عكس ما عرفته في الأسابيع الأخيرة إذ أصبح إدلاجي في النوم يسيرًا، بل إنني لم أعد اجتاز الدرب غير المرئي الواصل بين اليقظة والغفو، صرت أضي بيسر ونعومة، لا تقلب ولا ضجر، غير إنني بدأت أنتبه عندما أدركني ذلك في غير أوانه أو مكانه.

بدأ الأمر في العربة، خاصة عند عودتي إلى البيت عصرًا، أجلس دائمًا إلى جوار السائق، أما أن أقرأ ما فاتني من الصحف، أو كتابًا أبسطه فوق ركبتي، اقلب أوراقه اثناء الحركة، كثيرًا ما أتأمل حركة الطريق. العابرين، الملامح، أحوال الوجوه. تدفق الأنواع المختلفة من العربات، لم أعرف من قبل النوم أثناء الحركة إلا في الأيام الأخيرة، فوجئت برأسي يهوي ومرة أخرى انتبهت إلى ارتفاع أنفاسي مما جعلني أفتح عيني بسرعة وأتلفت حولي محرجًا من السائق الذي ظل مركزًا إلى الأمام. أكره الاغفاء على مرأى من الآخرين، أو في أماكن عامة فماذا يجري؟

شيئًا فشيئًا بدأت أرحل بسرعة، بل بمجرد ركوبي العربة، طفو ناعم، وثير، يليه استغراق، بل إنني صرت قادرًا على إبقاء دماغي مرفوعًا بدون أن يميل صوب صدري، قلت أنه التعب، غير أنني كنت أعرف نوعًا مغايرًا من النوم لم أطرقه ولم يأتني من قبل، كثافة ناعمة فيها قرب وبعد، إيغال وخروج، لم يعد يواتيني انزعاج،

بل صرت أمضي إلى هذا النوع من النوم، أتوق إلى ذلك الغياب الميسور الموقوت، لفترة لم يعلق عندي أي حلم أو بقايا رؤية، ثم بدأت أرى صورًا تتداخل مع بعضها، كأن ألمح جزءًا من رجل ما يرتدي سترة زيتونية اللون يقف خارج السيارة ملتصقًا بها رغم حركتها بسرعة، أو سيقان غير متصلة بجسد تعبر أمامنا على مسافة، يد تمسك مكبر صوت يدوي شهرة فوق سلالم عريضة من رخام لا تؤدي إلى شيء، لم أر صورة متكاملة أبدًا، مجرد شظية من شيء ما، ظهور صورة ما يعني صحوي، أستيقظ عليها، في أبو ظبي تطور حالي، دعاني صاحب قديم إلى العشاء في بيته، تطوع أحد زملائي لتوصيلي إلى الفندق حيث أقيم، كنت قريبًا من بيته، سيارة فاخرة، وثيرة، تعددت أسئلته عن مصر وأحوالها والمتوقع من الأحداث في مسارات مختلفة، أعرف تلهف المغتربين للاطلاع على الأحوال، كنت مضطرًا إلى الالتفات ناحيته، رفع صوتي قليلاً، أثناء تطلعي إليه بدأ سعيي إلى جوهر تلك الاغفاءة الوثيرة التي أمضي عبرها غائبًا، وحتي أقاوم انزلاقي الهادئ، أن أبقي جفوني مفتوحة، قبضت يدي اليمنى باليسرى، وبرغم ذلك ولجت ذلك القبو الذي لا أعرف إلى أين يؤدي. لا أدري كم استغرق الأمر لأنني عندما رجعت كان ما زال يتحدث مفصلا رأيه الذي لم أوافقه عليه، بدا لي بعيدًا عن الواقع، مغايرًا لما أجده، هل انتبه إلى غفوتي؟ أم أن تركيزه على الطريق حال دونه، لم أقدر الوقت الذي غبته بدقة، لكنني أيقنت من ملامح الطريق إنه ربما يكون جزءًا من الثانية ومع ذلك بدا لي حولا، كأني استغرقت أياما، بعد عودتي ملت إلى الصمت، الإصغاء، مبديًا الإيماء أو معلقا بالصوت، الغريب أنني

بعد تمددي فوق الفراش لم أنعس، إنما تقلبت قلقًا حتى كدت أرى ملامح الأرق القديم، عللت ذلك بتوتر ينتابني ليلة السفر، غير أنني أيقنت من بدء معرفتي لنوم مغاير لكل ما عرفته على امتداد عمري وتنقلي وأسفاري، نوم يدانيني حيث لا أتوقع، ويشملني عندما لا أدري، نوم يطلبني، يمضي إليّ ولا أسعي إليه، يأتيني عندما لا أرغب، يأخذني على مهل، باسترخاء بدون مستفزات أو عثرات، لم أشك للأقربين ولم أبد انزعاجًا ولم أفكر في استشارة طبيب كأنني أخشى أن أفشي سرًا ائتمنني عليه من أجهل، من لا أعرف، بل انتبهت فجأة إلى توقي للقائه عند بدء شموله لي، وتزايد أوقات التوالج والانسحاب.

٢٠٠٩

رمـاديـــة

أخرج من الفندق عصرًا، غدًا سوف أغادر، وصلت أول أمس، زيارة سريعة، لذلك لم أكف عن الحركة محاولاً استيعاب أقصى ما أقدر عليه من معالم المدينة التي جئت إليها ثلاث مرات من قبل، الأولى عام تسعة وسبعين من القرن الماضي، عبر البحر من فارنا البلغارية، بقيت المركب في الميناء، رست فجرًا وأقلعت ليلاً، كنت بصحبة زوجتي و محمد ابني، ما تبقي عندي صور لا رابط بينها، ولحيظات فزعت خلالها بعد اختفاء محمد عن مجال بصري ونحن في مسجد السلطان أحمد، فقدت حضوره لثوان غير أنها ضعضعتني، كان يقف ورائي مشغولا بالتطلع إلى قابس صغير للكهرباء، حتى الآن أرتجف فجأة كلما تخيلت ما كان يمكن أن يكون، المرة الثانية بقيت فيها ليلة قسرًا عندما تعطلت الطائرة اليمنية المتجهة بنا إلى موسكو، الثالثة أواخر الثمانينات عندما شاركت في دورة ثقافية نظمتها الجامعة الصيفية الاوروبية، لا أعرف اين اقمت في المرتين الأخيرتين، كما أجهل الموضع الذي رست فيه السفينة أول مرة. هأنذا قريب من المدينة القديمة، على

مقربة شارع الاستقلال الذي يتدفق فيه المارة سيرًا على الأقدام، أخبرني من أثق به أن من يمر به يوميًا مليونان، قطعته مرات منذ وصولي واهتديت إلى مكتبتين متخصصتين في الموسيقى، دققت في الاختيار، اقتنيت ما أعرفه من الالحان العثمانية القديمة، الأغاني والعزف الفردي على العود والطنبور والناي الذي يئن شوقًا إلى الأصل الذي انفصل عنه.

في العواصم الكبرى أسعي إلى تلك المتخصصة في موسيقى العالم لأقتني ما أرغبه من تركية وإيرانية وصينية وموسيقى الغجر، هأنذا في منبع ما اعتدته وألفته، عصرًا أمضي إلى الشارع نفسه، إنه سوق كبير، بعض المحال تذكرني بمثيلات لها في ميدان العتبة والقاهرة الخديوية، خاصة الصيدليات، ودكاكين الحلوى حيث البقلاوة بأنواعها والكنافة المبرومة والشعر.

يقع الفندق في شارع مغلق على العربات، لا يدخل إلا ما يحمل تصريحًا، ممنوع المكث، إما لإنزال السياح وأمتعتهم، أو لصعودهم، يعني ذلك وجود تهديد ما. ثمة تحسب لشيء لا أعرفه وإن كنت قادرًا على التخمين من خلال متابعتي للأخبار عن بعد، عندما جئت إلى دورة الجامعة، في الطريق من المطار إلى الفندق لمحت عربة شرطة، يجلس ضابط إلى جوار السائق، إلى جواره مسدس من وضعه أدركت أنه معد للإشهار وللاشتباك، ظل يعاودني ذلك، منه أستدل على توتر ما، في هذا التوقيت أنطلق منفردًا غير مبتعد إلى ما أجهله، أمشي للفرجة ولتأمل حركة الخلق وأوضاع جلوسهم، خاصة في المقاهي المعنونة «سميط سراي»، للسميط مكانة وحيز في ذاكرتي، طعمه، رائحته، يباع في القاهرة من خلال

الأفران، صحيح أن باعته الذين يطوفون بالمقاهي حاملين أوعية «أسبتة» ذات شكل مخصوص اختفوا الآن، غير أنني أستعيدهم عبر الذاكرة، ليس شخصا منهم على وجه التحديد، إنما في مجملهم. حركة بعضهم، أوضاع الأسبتة فوق أكتافهم، هل يعني تخصيص أماكن هنا أن الأصل جاء من استانبول؟ لا أعرف، ولماذا لا يكون العكس، حتى الآن أذكر بضيق عظيم إبطال سليم الأول لثلاثة وخسين صنعة من مصر، نقله الصناع والمبدعين إلى هذه المدينة، حضارة كاملة.

أمام الفندق ملهى ليلي، عند المجيء أو الرواح يقترب مني بعضهم، يتحدثون العربية بلهجة شامية موجهين الدعوى للفرجة على جميلات لا يوجد مثلهن، كنت أحسم الأمر بشدة، لا أجيب على أسئلة «من أين أنت؟» «آه من القاهرة أو الاسكندرية..»، أتوقف ملتفتًا ناطقًا بحزم: من فضلك، غير أن الأمر اختلف هذه المرة.

تتجه صوبي مبتسمة، في البداية لم أتوقع، غير أن ابتسامتها الرحبة، الفسيحة، المطمئنة، عندما دنت أيقنت أنها تخصني، أنني المقصود، المعني، متوسطة الطول، متناسقة، ترتدي قميصًا يبرز صدرها المتوثب، المشدود، قوام فتي، متوائم، متلائم، دفاعي، مهاجم، محرض، ملامحها مألوفة، قريبة كأنها من الأهل، أكاد أجزم أنها مثلت عندي من قبل، أين؟ لا أعرف، إقبالها دافق لا يمكن مقابلته بالجفوة، أو الصد مهما كانت المحاذير، قالت شيئًا بلغة لم أفهمها، أجبتها بالإنجليزية مرحبًا.

أهي طالبة من اللواتي حضرن صباح اليوم في المدرج ليستمعن إلي؟، ربما، لا يمكنني القطع، كل ما يبدو منها يؤكد أنها تعرفني، بل تألفني، هذه ليست ابتسامة مصاحبة لعرض عابر في الطريق.

«هل تستمتع بوقتك..»

أومأت، مدت يدها لتلمس معصمي برفق، تقول إنها متأهبة لاطلاعي على بعض مما يهمني، نطقت بعبارات شكر، بدأ يتصاعد عندي حذر، خاصة مع عدم قدرتي على حسم حيرتي، هل ثمة معرفة سابقة حتى ولو عابرة، أم أنها إحدى طرق بنات الهوى، ماذا لو ظهر من يصحبها على مسافة ليهاجمني مدعيًا أنني الذي بدأت الحديث إليها للتحرش والسعي، أومأت مرددًا كلمة شكرًا بينما أتخذ وضع التأهب لاستئناف مشيي، تعود إلى النطق بغتها الغريبة عني، لم أفهم لكنني خمنت ما يعني حيرتها أنني لا أعرفها، ربما لأنها أشارت إلى صدرها. بدأت الخطو محييا. من الأفضل إنهاء هذا الموقف، أستأنف خطوي بينما تتطلع إلي دهشة، تنطق متسائلة، عندما التفت كانت تولي متجاوزة الفندق الذي أقيم فيه، ما زال ملمسها لمعصمي ساريًا.

لماذا لم أتحدث معها؟

لماذا لم أعرف اسمها على الأقل؟

إنني غريب، والغريب إلى جانب أنه ضعيف فهو مستهدف، أسافر غدًا وأحذر التورط في أي مشكلة عابرة ربما تؤدي بي إلى وضع لا أتوقعه، يحرجني مع الجهة التي استضافتني.

لكنها بدت حنونًا، تضفي دقة ورغبة في القُربى، ألست مبالغًا في حذري؟ من الأفضل أن أكون كذلك بدلاً من السعي إلى مشكلة ربما تعيق سفري. وتوجد وضعًا لا أقدر على معالجته.

عندما وصلت إلى الساحة المؤدية إلى شارع الاستقلال، تطلعت إلى الخلف، إلى الجهة التي التقينا عندها، هل أعود ركضًا علّي ألحق بها، أعتذر عن جفوتي، عما أكون قد سببته لها من ضيق، ليس سهلا أن تقبل أنثى على رجل فتلقي منه مثل هذا الصد؟

لم أنثن. يبدو هذا عبثًا، كانت متاحة، قريبة، ساعية إلى القربي، لماذا وليت، لماذا نكصت، أما زال خجلي القديم مقيما، أم إنه الحرص والخشية المبالغ فيها؟

بأي لغة تكلمت. أعرف ايقاع التركية من الأغاني، ملامحها مصرية تمامًا وكأنها قادمة للتو من أزقة العطوف، بنت بلد، هكذا يبدو حضورها، أما اللون الذي بدأ يسري إلى صورتها المستعادة فهو الرمادي، لها وضعية المتسائلة الدهشة الحائرة لصد ربما لم تتوقعه، عندئذ أهفو لائمًا نفسي، نادمًا على أوقات حنون كان ممكنا لها أن تدثرني، لم أستطع الاستمرار في المشي وتأمل الواجهات والملامح التي لا أعرف أصحابها، عدت إلى الطريق المؤدي إلى الفندق لعل وعسى..

٢٠٠٩

حمـــام

لماذا الآن؟

لماذا؟

لماذا اليوم بالتحديد الخامسة عصرًا والوقت قيظ؟ ما وقع بصرها عليه ليس جديدا، اعتادته منذ أن اكتشفت بالصدفة حضوره وعُريه وتدفق المياه على قوامه من السطل الذي يملأه من الصفيحة، صيفًا وشتاءً، بارد، ساخن، سيصل الجيران كلهم أنها اكتشفت ذلك أول مرة، صدفة أنها اطلت، تطلعت، فوجئت بشهاقة جسده، وسفور تفاصيله، وتوثب عضوه.

عضوه، عضوه.

تقعد متكئة إلى منضدة الأكل، لو أبصرها أحدهم لظن الحزن جاثم فوقها، والهم يطوقها، أليست كذلك؟، منذ دخولها هذه الشقة لم تزعق، لم يخرج صوتها، لم تنهر أي من البوابين، أو صبية البقال القريب، والمكوجي والشغالة التي تتردد عليها الآن مرتين في الأسبوع بعد إحالة عبده إلى المعاش المبكر وتزايد الشرود في

عينيه وتدلدل عنقه أكثر مما كان عليه، خروجه ودخوله، طلوعه ونزوله، لا فرق بعد فشل كافة الوساطات التي لجأ إليها، يميل إلى الإيغال في الصمت، لا يخبرها بالجهات التي يقصدها، ولم تعد تستفسر، لا تبدي الفضول حتى، ما زال في المقتبل، ستة وأربعين، مهندس، عندما عرفته كان مثله له صيت وعليه إقبال، الآن أعدادهم بلا حصر بعد تصفية المؤسسات وبيع الشركات وتوفير العمالة، قعدتهما أمام التليفزيون لتفادي الحوار، ينظر كل منهما في اتجاه الشاشة، وعندما تقوم لتحضر شيئًا، غالبًا من المطبخ، تراه في مجمله، قوامه كعود القصب المنثني، يمدد ساقيه فوق المقعد، لم تعد تطلب منه أن ينزلهما فوق الأرض، تتمنى لو قام إلى مرقده، ليتركها بمفردها، منذ عامين كل منهما ينام في ناحية، اعتادت ذلك، تتقوس منحنية في فراشها، إذا جاء متوددًا، رقد بعضا من الوقت، تزداد تباعدًا حتى وإن لم تتحرك من مكانها ولم تتقلب، فيما ولي من أيام، كانت توليه ظهرها، تتعمد ملامسته بمفرق ردفيها، عندئذ تدب فيه الحمية حتى لترجوه بأنفاس متعثرة أن يتمهل حتى لا يجرحها. لم يثره شيء كظهرها حتى ظننت به أمرًا، لكنه لم يحاول أن يقربها قط إلا من مطلعها الطبيعي، لا تعرف ماذا جرى؟

لا تعرف لماذا اندفعت صارخة، زاعقة مستغيثة برئيس اتحاد الملاك، بالجيران، مرددة، عيب والله عيب، ليس من المعقول ذلك، فيه حرمات، فيه حرمات، لماذا اليوم مع أنها تراه وتنظر إليه خفية منذ أكثر من عامين؟ عندما تخلو بنفسها تماما بعد ذهاب شادية إلى الجامعة وخروجه إلى حيث لا تعرف، تستعيد المرة

الأولى، دخلت المطبخ عصرًا، بالضبط الخامسة، موعده الذي لم يخلفه فيما تلا ذلك، كأن نداءً خفيًا دفعها إلى النظر، إلى التطلع، إلى عبور إطار النافذة بالبصر، النافذة المؤطرة بالألمنيوم، المغطاة بالسلك، تخشى الفيران إلى حد الرعب وعندما نجح أحدهم في التسلل إلى المطبخ وبلغ الأمر أنه كان يظهر علنًا أمامها مطلا عليها من فوق الدولاب المواجه للثلاجة، جزعت وارتعدت، فشل زوجها في طرده بالمبيدات والدواء اللاصق، عندئذ أتيح لها أن تتأمله عن قرب كابحة حواسها وارتعاشاتها وبللها وتنسمها عرقه النفاذ عن قرب رغم فجاجته وشيوعه في مسافة غير هينة، دخل المطبخ ولم يخرج إلا بجثة هامدة ممسك بذيلها مؤكدًا أنه لا يوجد أي فأر آخر، ترباس، ضلفة، جدار، جرار، هراس، دقاق، فرّام، حرّات، ابن كلب، الفاظ عديدة، غريبة، لا تدري من أين جاءت بها، مترادفات تصفه وتلخصه، راحت تتقاطر داخلها وتتوالي كاظمة، قامعة أي تعبير يمكن أن يرشح على ملامحها فيشي ببعض مما يجول عندها، لا تخشى عمر، لكنها تحذر ابنتها الوحيدة والتي ظلت إلى فترة قريبة تحكي لها أدق ما يمر بها وما تتعرض له من مداعبات وتحرشات ونظرات وما تشعر به تجاه هذا وذاك، الغريب أنها تباعدت عنها، لم تعد تحرص على دعوتها إلى النوم بجوارها، تؤثر الانفراد، الانطواء على نفسها، لا تمضي إلى النوم بسرعة إنما تستعيده على مهل في العتمة المطبقة عليها، تماما كما وقع بصرها عليه أول مرة عندما اكتشفت صدفة عريه الضاوي، بالضبط في الخامسة عصرًا، منذ ذلك لم تتخلف إلا بسبب سفر أرغمت عليه، إذا خلا البيت من عمر وابنتها تقف على راحتها،

تتأكد من إغلاق الباب الرئيسي، تطفئ الأنوار كلها، حتى الخافت منها، يمكنها رؤية الخارج، لكن يصعب ذلك لمن يتطلع سفورًا أو خلسة عبر النوافذ الخلفية للمبني المقابل، يدثرها الظل، مرات تتجرد من ملابسها حتى الداخلية. ترتد كما ولدتها أمها، تتطلع غير هيابة محتفظة بمسافة قصيرة بينها وبين حد النافذة، قادرة على الاحتفاظ بالمسافة مهما بلغتّ الرعشات وتوالي البلل الذي لم تعرفه مع عمر في أقصى درجات الحميمية التي وصلت إليها معه أو بمفردها عندما أتقنت تسوية كل شيء بمفردها، كأنها بنت بنوت تنتظر وتنتظر إلى أن حلت الخامسة ونظرت صدفة فطلع لها هذا الفلق، إنها البصة الأولى وما حدث، لاسترجاعها نبضة ولتفحصها عبر الذاكرة خفقة.

يقف أمام الحجرة الملحقة بالمبنى المخصصة له، زاوية لا يمكن رؤيته منها إلا عبر نافذتها بالطابق الأول، صاعد إلى أعلى، فاره، شعر كثيف يغطي صدره، عضلات ذراعيه وفخذيه، عنقه غليظ، طويل، مدكوك ايضًا، يبدو من الجلباب البلدي الذي يرتديه يوم الجمعة قبل ذهابه إلى الصلاة، في الأيام الأخرى يرتدي قميصًا وبنطلونًا مما يتلقاه من السكان، رغم نفاذ عرقه فإنه نظيف، يمكنها معرفة ذلك بالنظر، تأملته عن قرب عند طلوعه مع كشاف الغاز، العداد في المطبخ، مرتفع، يقف الكشاف في الخارج، يدخل هو، يقف فوق الكرسي، ينقل الأرقام ثم يخرج يسلمها، عيناه دائمًا في الأرض، مخفوضتان، لم تر منه ما يلفت النظر، كأنه لا علاقة له بهذا العاري الذي يفرد طوله كأنه نخلة، ينحني ليملأ الكوز من الصفيحة. يدلق الماء على رأسه. مرتان يدعك جسده وتحت

إبطيه بالليفة والصابونة، هذا الصعيدي له جدول لا يخلفه كأنه مولود في بيت له حمام دافئ وبارد، كأن موسيقى خفية تنبعث منه عندما ينحني ويعتدل، يفرغ الصفيحة خلال دقائق، صيفًا، شتاء، يبدو كما ولدته أمه ويستحم بالماء البارد، تفضل يومي الليفة والصابونة، يتمهل، يدعك ذراعيه وفخذيه وبطنه وساقيه وكعبيه ويمسك طرفي الليفة الطويلة ليمررها على ظهره وردفيه النحيلين، في المرة الأولى أولاها ظهره، لم تر حاجته جيدًا، لم تتمكن منها، لكن بعد أسبوع وقف مواجها لها، صدره وبطنه ناحيتها، ما تزال تحتفظ بالدهشة الأولى، أيوجد من لديه مثل هذا؟ أعتادت ألا تذكره بالمسميات الخاصة به، سواء الشفاهية أو المكتوبة في المطبوعات التي طالعتها للمعرفة ومحاولة التبيان، مما تزال تذكر بدهشة وخوف ذلك الصباح عندما كانت في الثانوية، خرجت من البيت في السادسة صباحًا، الشارع خال تماما، كأنها تراه الآن، لا.. بل كأنها تمر به بنفس الخطى المتمهلة، عند الناصية ظهر رجل يسكن البيت القديم ذا الثلاثة طوابق، في عمر والدها، صيفًا وشتاء يرتدي حلة كاملة وصديريًّا، ياقة قميص مرتفعة، رباط عنق يتوسطه دبوس، متمهل الخطي، يقال إنه يعمل في مصلحة الضرائب، فجأة توقف أمامها، بسرعة خاطفة فتح أزرار البنطلون وأطلت حاجته راقدة بين يديه، لينة طرية، تم الأمر في وقت قصير جدا. أغمضت عينيها لكن بعد أن احتوته بالنظر، لم يفعل أكثر من هذا ثم ولّي متئدًا، عرض ثاقب أرغمت عليه، بعد خطوتين جرى لها ما لن تنساه، ماعت نفسها وترددت خفقاتها، استندت إلى الجدار لتتقيأ كافة ما في معدتها، حتى الآن تتساءل،

هل ما جرى حقيقة أم إنها توهمت؟ عندما تمكنت من رؤية هذا الصعيدي، هذا الفلق، لم يعاودها هذا الاضطراب، صحيح أنها ابتلعت ريقها لكنها بتأثير فضول ورغبة صادرة منها إليه، مرتدة عندها، عندما تراه عن قرب يبدو نحيلا، لكن في عريه كأنه آخر، عريض، مدملج، نافر في كل شيء، عندما سافروا قبل إحالة عمر إلى المعاش المبكر، قبل بدء تدهور حاله وسريان ليونته ورخاوته وانطوائه على نفسه وتكومه عند نومه، كذلك هي، أعدوا حقيبتين، جاء ليحملهما إلى أسفل، ظنت أنه سيتناول واحدة ويعود ليأخذ الثانية، مال عليهما، نتعهما معًا، في كل يد واحدة، كأنه لا يحمل شيئًا مع أن كلاً منهما مثقلة بملابس وحاجيات، نهارًا تقاوم رغبة حادة في الأيام التي تعود فيها من العمل أن تستدعيه، طوال النهار الجيران يصحن مناديات، إما ليشتري شيئًا من المجمع التجاري القريب، أو ليراجع تشغيل رافع المياه الذي يهن أحيانا ولا يساعد في ضخ المياه إلى الحد الذي يؤدي إلى تشغيل السخانات، في الشتاء تشتد الحاجة إليها، أما هو فلا يعنيه الأمر، في الهواء البارد يقف كما ولدته أمه، على مهل يدلك جسمه وينظر إلى حاجته بينما تلتف أصابعه حولها، في البداية ظنت أنه يرضي نفسه بنفسه، لكنها بعد تدقيق ونظر تأكدت أنه يعني بغسل كل جزء، خاصة ما بين فخذيه، اذن.. من أين رائحة العرق النفاذ؟ لا بد أنه من نتاج ذكورته الفائضة وعافيته البادية، أثناء وقوفه ملط تستدعي أوضاعًا رأتها في بعض الأفلام التي أتيح لها أن تراها عند إحدى زميلات الدراسة سرًا، الركوع ورضاعة الحاجة ومصها، لم تعرف مثل ذلك، لا تجرؤ على طلبها، ثم إنه لن يحتمل دقيقة إذا استجاب

لها، لم تعرف الراحة مع عمر، دائمًا يتركها لاهثة، لا يصبر عليها، ليس أنانيا لأنه يعتذر ويبدي خجلا، غير إنه يبدي ذلك منذ ليلة دخلتهما ومنذ اثنين وثلاثين عامًا، حتى يأست وصارت تناغي نفسها معللة ذلك بأنه نصيبها، وأنها ستخرج من الدنيا بدون معرفة مباهج شتى تسمع عنها وتري بعضها الآن في الأفلام التي صارت في المتناول وتبث بدون تشفير من تلك الفضائيات، تبذل الجهد الأقصي لإخفاء حالها، ليس عنه، لكن عن ابنتها، لكن منذ ظهور هذا الفلق ومداومتها على متابعته والتملي منه ومناغاته، وتحسس جسمها وأنهيارها البطيء بذلك البلل المُرضي الذي لم تعرفه في حضن عمر، منذ رؤيتها له صارت تتمني الانفراد في البيت، أن تكون بمفردها وقت دلقه المياه على جسده، ما تزال خلسة تواليه صيفا وشتاء وها هي في بداية الصيف الثاني، ما أكثر الحجج التي يمكنها أن تستدعيه من خلالها، لكنها تأبى وتوقف نوازعها، خشيه ما لا تتوقعه، إذن.. ماذا جرى حتى تنهي هذا الرضا وتوقف حالها بتلك الصرخة التي أصدرتها فجأة مطالبة الجميع بمنع هذا الفسق العلني؟!

لا تعرف ماذا جرى؟ خاصة إنها تكيفت مع الحال، أن تبقى في العتمة، أن تلمسه وتضمه وتتوالج معه من بعيد وهو مغيب لا يدري ما تفعله به. عندما يراها عابرة باب العمارة، يقف خافضا رأسه، وإذا كان سيصعد حاملا بعض المشتريات التي تأتي بها. ينتظر صعودها بضع درجات، وربما طابق أو اثنين حتى لا يصبح وراءها تماما، حتى لا ينظر إلى ردفيها المكتملين، المحتفظين بكامل أبهتهما وابتهاجهما، يعرف الأصول المدكوك، الغافل، القفل تقصد أنها

ظنته غير منتبه إلى ما يسري منها إليه، هذا ما انتبهت إليه في لحظة كادت أن تقترب فيها من ذروة انفجار البلل الذي يهدئ كوامنها ويطلى داخلها وخارجها، حضورها كله.

بعد أن وضع الليفة فوق ماسورة المياه فوجئت بما لم يصدر عنه من قبل، يستدير على مهل، على مهل، يصبح في مواجهتها تماما، عيناه صوبها ويده تحيط حاجته غير ساكنة، طالعة نازلة، لا.. لم يكتف بذلك، إنما أشار إليها وإليه...

٢٠٠٩

فَــــــوْرة

رغم القيظ إلا أن تصميم المعبد أنشأ الظل وأتاح ممرًا لعبور الهواء، تفد التيارات غير المرئية متتابعة، أقف عند بداية الممر، كأنه البحر مع أن الصحراء بادية، ممتدة، تبقى من بناية هائلة على مشـارف الرمال، معابد الغرب جنائزية أما ما بُني على الشرق فيخص الحيـاة بكل تدفقاتها، ضوء حاد، شمس نافذة إذا ما تعرضت لها، إذا لزمت الظل فالحر محتمل بل ألطـف من المدينة الكبيرة التي أقيـم فيها حيث الرطوبة والزحام والتلوث، يعجب من يعرف أنني متجه جنوبًا في بؤونةّ، يونيو، ذروة الحر، أقول إنه اقتفاء لما اعتدت عليه، في البدايات كانت الأسرة المكتملة تتجه إلى قبلي، إلى القرية حيث الجدة والخال والأعمام، حيث النشأة الأولـى، شهور الإجـازة نقضيها هناك، رغم انغماس أمي في البيت، في الخبيز، في الطهي، إلا أن شعورنا العام أننا ضيوف، لذلك نحظى بوضع!، استمر ذلك حتى الرابعة عشرة، ربما الخامسة عشر، جرى انقطاع لأسباب شتى، أعود منذ أعوام إلى الجنوب، ليس إلى القرية لكن إلى مكان قريب أتوحد فيه

مع نفسي، مواز لمسقط رأسي غير أنه خلو من إزعاج الأقارب، أقصى البر الغربي للأقصر، وصل صاحبي المهاجر إلى إيطاليا مع أسرته، زوجته الثانية، ابنته من زوجته الأولى، ابنه المهاجر إلى الولايات المتحدة، كلاهما من زوجته الأولى التي توفيت بعد إصابتها بالسرطان، رتب الإقامة في فندق ونتربالاس، قال إنه لو جاء بمفرده لرافقني في البيت المبني من الطوب الأخضر والذي أجد الراحة فيه بعد أن أعده الحاج محمود مالكه للإقامة المريحة، زوده بالماء الساخن شتاء، والمراوح، وهذا العام أدخل أجهزة التكييف في كل الغرف، حاله تيسر في الشتاء الماضي وربنا فتح عليه، أتابع نموه بسرور خفي، بدأت معه عندما كان عدد قليل يعرف الطريق إليه، الآن يطلعني على قصاصات من صحف بلغات مختلفة، صحفيون جاءوا وأقاموا وتمتعوا وذكروه بالخير، يختتم الحاج حديثه بقوله: «الحمد لله على كل شيء..» قال صاحبي: إن الأولاد لم يعتادوا هذا النوع من الإقامة، يكفي أنه أقنعهم بالاتجاه جنوبًا في عز القيظ بدلا من البحر، إنها الفرصة الوحيدة للزيارة، لا بد أن يعرفوا بلدهم بشكل ما.

أصافحهم أمام المعبد القائم عند حد يفصل بين الأرض المزروعة، اللون الأخضر بكافة تدرجاته وبين الصحراء بتموجاتها المرتفعة والمنخفضة، الأصفر الفاتح، الغامق وما بينهما من ظلال، لم أعرف موضعًا تتحدد فيه الألوان مثل الصعيد، خاصة هنا، البر الغربي، يمكنني الوقوف، قدم في الصحراء وأخرى في الزرع، الوقوف على ناحيتي الحياة والموت معًا، ربما كان اختيار المكان

للمعابد الجنائزية، أيضًا لقربها من مراقد الموتى، ملوك أو نبلاء أو فنانين أو كهنة أو عمال.

الزوجة الثانية تبدو متقدمة في العمر، أكبر من عمرها الواقعي، لا أذكر المناسبة التي قال خلالها إنها في الخامسة والأربعين، كان ذلك هناك في روما خلال تعرفي به بعد أن قام بالترجمة،ابنته الصغرى ربما في العاشرة، حائرة بنظراتها، ما تزال عند مفرق الطفولة والشبوب تجاه الاكتمال، ابنه الأوسط ربما في الثالثة عشر، نظارته الطبية مستديرة، ملامحه أقرب إلى هاري بوتر عند تأهبه، الابنة الكبرى من زوجته الأولى، متوسطة الطول، أول ما لاحظته أن رأسها نسخة متكاملة من جمجمة والدها، نفس التكوين، قسماتها مصرية تمامًا، لا يمكن اكتشاف أي أثر لأمها الأوروبية، على العكس من الولد والبنت، ملامح أمهما غالبة، الكبرى تتقن العربية، تتحدث بعامية واضحة، كأنها لم تولد ولم تتعلم هناك، أهو تأثير الأم؟ هل كان الأب أكثر تفرغًا لها؟

لا أعرف..

صحيح أنني لم أمكث عند ملامحها أطول من الوقت الذي استغرقته المصافحة، اعتياد قديم مصاحب لخجل مقيم، ألا أحدق في ملامح أي إناث يصاحبن من أعرف، أحيانا أحيد متعمدا عن اللواتي يلفتن نظري بجمال قسماتهن ورهافة خصورهن، أتجنب بثهن، ربما إذا حدقت أثبت ولا أتجنب، عندئذ ألفت الأنظار وهذا ما حاولت تجنبه عبر مراحلي المبكرة أو المتأخرة، بعد الانفراد أبدأ

الاستعادة وقد يجري التعلق باللا مرئي، اللا موجود، أكثر مما لو كنت أتممت و توالجت، ولي في هذا أحوال.

الكبرى لم تثر عندي أي رفة، حضورها عادي، متطلعة دائما إلى أعلى كأنها ترقب طائرًا خفيًّا لا يدرك عبوره إلا هي، قميصها وتنورتها لا يبرزان استدارة أو تميزًا خاصًّا، هكذا خُيل إلّي.

بدأت الحديث عن خصوصية المكان، عن الموضع الخفي، أي ذلك الذي كان، مما اعتدته مطابقة المكان على المكان، كل مكان يخفي امكنة أخرى ولت، أحاول التقصي والإحاطة بأقصى قدر مما يمكن لي معرفته، تحدثت عمن شرع في البناء، من أضاف بعده، ماذا اختفي وما تبقى، بدأت الخطو على مهل، داعيًا الكل إلى التأمل لدقائق هنا أو هناك للاستيعاب، لاحظت إقبالهم ومحاولة التركيز مع الاستفسار عن أمور، قالت الزوجة معلقة على تحية العابرين وإقدام بعضهم على المصافحة: إنني معروف جدًّا هنا، قلت: إنني أتردد وأقيم، لو أن الأمر بيدي ما فارقت. صاحبي لم ينطق غير أنه محدق إلى حيث أشير، مصغيًا إلى ما أقول، كان مبتهجًا بتلقي أسرته لما أقول. قبل أن نبدأ قال إنه متأهب للإلمام برؤية خاصة، التفت إلى ابنه مؤكدًا أنها زيارة غير عادية، قلت إنه يشعرني بالمسئولية.

بدا مزهوًّا بعتاقة البناء، وروعة الجلال المنبعث من الجدران، كتابة ومشاهد، كأنها تخصه، يتوثب في خطوه، متطلعا إليهم بين الحين والحين كأنه يقول مؤكدًا: ألم أقل لكم؟

يتدرج البناء من فسيح إلى أقل، الصالات الداخلية أكثر تحديدًا، صحيح أن الأسقف الحاجبة أزيلت عبر الأزمنة المتوالية وعمليات التدمير في عصور الردة والجهالة، إلا أن كثافة الأعمدة توحي بالظلال التي كانت، قرب تمثال اختفي نصفه الأعلي، من اليدين أرجح أنه لأنثى، حرصت على مرورهم أمامي، لسبب ما أدركني إرهاق اعتدت قدومه المفاجئ، مصحوب بدوار خفيف، أحرص ألا يبدو ذلك حتى لا أزعج ضيوفي، الرجل لم يفارقني هناك حتى أنني كنت أخجل وأقسم أنني بحاجة إلى الراحة، حتى إذا صعدت إلى الغرفة أمكث قليلا، ثم أعود إلى الطريق، إلى مقهى أتأمل في زحامه الخلق بينما أحتسي النبيذ الأحمر ظهرًا أو الجرابا الايطالية اللاسعة الثرية بعد العشاء، أكون أعمق وحدة في الزحام إذ أنتحي ركنًا قصيًا، أتأمل الخلق، أنا بينهم ويمنأى أيضًا، أدقق ملامح هذا، وأتخيل مهنة ذاك، وأتلصص على انفعالات هذه أو تلك عند بلوغها الذروة أو لحظة الدفسة الأولى عند الإيلاج..

ما هذا؟

عند تجاوز البنية الكبرى، لحظة خطوها إلى الأمام، قدمها اليمنى إلى الأمام، اليسرى إلى الخلف، ما بين اكتمال الخطوة والخطوة لمحت هذا التأود، تحرك قميصها المسدل على ظهرها ويغطي حافة التنورة، لسبب ما لا يمكنني تحديده، ربما لمرور نسمة خفية لم أنتبه إليها، أو لطبيعة القماش أو لحركة منها ظهر وادي الظهر ومفرق الردفين مع استدارتهما المقتصدة وتناسبهما كأنهما مدارين لكوكبين، تبتعد عني بتؤدة، بتمهل، تأن، تلويح مقصود، تتأوه ولا تمضي، تومئ ولا تمشي، ماذا يجري؟

كيف لم أنتبه؟

كيف؟

قصدتها بتحديقي، بنظراتي، توثبت بحواسي، لم يعد حولي أعمدة ولا بقايا جدران، لا حروف خطت منذ آلاف السنين ولا بقايا لعبادة وعقيدة مصونة كانت واندثرت،كان للوصول إلى هذا الجزء من المعبد شروط وأصول، إما الملك أو كبير الكهنة، أهي صدفة أن يسفر لي مكنونها عن وهجه هنا، عند هذا الحد بالتحديد؟

تخطو، ماذا طرأ على سيرها؟ ماذا جرى حتى أرقب ما لم أره قبل دقائق معدودات؟ كأنها أخرى، أكثف التطلع محاولا إلغاء الفراغ ما بيني وبينها، وضع تطلعها الدائم يجعلها وثابة، كأنها تقف وتخطو على أطراف أصابعها، هذه التي بدت لي قصيرة، تطال دمي كله الآن، تسري عبره، تدفئه، تنثني به إلى مسارب أخرى، أقتفي أثرها ببصري، بحاسة بصري التي احتوت حواسي الأخرى كافة، يستغرق كل منهم في التحديق إلى ما يراه، لكل منهم وجهته، صحيح أنهم متقاربون لكن ثمة شيء انفرط كان يجمع بينهم. ترفرف منفردة، يقوى بثها المفاجيء، تفجرها المباغت، يتسارع خفقي مع تغير مسارات دمائي، أستند إلى العمود المتوج بحزمة أوراق بردي ملمومة، مضمومة، هكذا الزهور وتيجان الأعمدة، في مدخل المعابد والمساحات المكشوفة، المتاحة للكافة، تبدو متفتحة، كلما اقتربت المسافة من قدس الأقداس تنغلق الزهرة، عمود التاج، حتى يصبح عند الخطوة الأخيرة أو ما قبلها مضمومًا، ملمومًا.

تتراجع مقتربة، لا تمشي إنما تبدو كأنها تقوم برقصة أو تخطط لنغمة ما، يبدو صدرها متوثبا نحوي، تتكوكب استداراتها التي تجسدت عندي فجأة، كأنها تبدلت في غمضة عين، أهي هي؟ تمضي في خطوط دائرية، كأن أحدهم وضعها لتحدد مسارها، تقترب مني حتى أكاد ألمسها لو مددت يدي على استقامة محمودة، غير أنني لا أجرؤ، لا.. لا أقدر، بقدر تصاعد الرغبة بقدر ما يطرأ من وهن، أستند تماما إلى العمود بينما تقف منفردة ملامسة خصرها بيديها، بأصابعها، ينحسر الرداء عن مفارق وانحناءات حاضة، أين ذهب صاحبي وامرأته وابنه وابنته منها؟ لماذا تنفرد بي؟ أدرك استحالتها، أنحني مغمضًا عيني، غير أنني أراها دانية، دافعة بالرغبة إلى مداها، مستنفرة تلك اللذة المنبثقة من بعد عميق لا أقدر على تحديده أو تعيينه، كما لا أقدر على تصنيف ما يوشك أن يخرج عني، فلا قياس أعرفه يمكنني المقارنة به.

٢٠٠٩

محيط

حتى لو رجعت اليوم التالي لن أجد المكان كما تركته. كما عرفته. منذ عامين بالضبط جئنا إلى هنا، ركبنا قطارًا فائق السرعة من باريس وصلنا محطة «دينيه» التي تتفرع منها خطوط عدة إلى أنحاء مختلفة من مقاطعة بريتاني وغيرها، ما زلت أذكر لحظة نزولنا إلى الرصيف، انتقالنا عبر نفق صغير إلى رصيف آخر حيث قطار أقل حجمًا ويتكون من أربع عربات فقط، سرعته أقل. ماجدة زوجتي، آني المحررة بدار النشر «سوى»، خالد المترجم، غلا زوجته. بعد حوالي ساعة وصلنا محطة سان فازير، تطلعت حولنا بعد الخروج من مبنى المحطة، باتريك في انتظارنا. عرف كيف يجعل من مدينته الصغيرة مركزًا ثقافيا يموج بالحركة، ها نحن نتأهب لتسلم جائزة منحت لنا مناصفة ـ أنا وخالد ـ بعد شهور قليلة من صدور الترجمة الفرنسية لكتاب التجليات. الجائزة باسم سيدة «لور باتيلون»، كل ما عرفته عنها أنها ترجمت خورخي لويس بورخيس ترجمة رائعة إلى الفرنسية، لم أعرف من رصد الجائزة، من يمولها فقط أنها تمنح من بلدية سان فازير في وقت معلوم كل سنة وبترتيب من باتريك روفيل الروائي، النشط الثقافي.

لا أنسى لحظات اللقاء الأولى والأخيرة في المدن، إلى اليسار لمحت سفينة ضخمة عند نهاية الطريق، سألت خالد:

أهو المحيط؟

قال إنه لا يعرف بالضبط، إنها المرة الأولى التي ينزل فيها المدينة، في هذه المرة كان الفندق وسط المدينة، لا يمكنني تحديد موقعه الآن، لم أستفسر، أحيانًا أفضل بقاء بعض الأمور مجهولة في دائرة الظل. كم مضى؟ عامان، الفندق الذي نقيم به لم يكن قائمًا، من ثلاثة طوابق، عمارة سابقة التجهيز، لونان تتبادلهما الواجهة، الأخضر والأبيض، الشرفة تطل على المبنى الخرساني هائل الحجم الذي حيرني وما زال، عندما وصلنا إليه ليلة تسلم الجائزة استفسرت من باتريك:

«هل يطل على المحيط؟».

هز رأسه نفيًا. قال إنه مبني على خليج ينتهي عند المحيط، إنه أهم قاعدة غواصات غرب أوربا، أشار إلى الجدران الضخمة، قال إنه بُذلت محاولات عدة لهدمه بعد انتهاء الحرب كلها باءت بالفشل، منذ سنوات قليلة لا تتجاوز الخمس تقرر تحويل جزء منه إلى خدمة المراكز الثقافية.

مضى منحنيًا من دون أن يدلني على الاتجاه الذي يجب أن أمضي خلاله لأنتهي إلى شاطئ المحيط يشغلني اللا مدى، الأفق المفتوح. للمرة الأولى وقفت عند حده، كان ذلك في الرباط قرب باب الوداية، صخور ضخمة يتكسر عليها الموج الوافد من حيث لا أعلم. لم أفارقه حتى اكتمل الغروب، نزول قرص الشمس عند

الخط الذي تلتقي فيه السماء بالماء، مجيء الليل يلغي الحدود والفوارق، يصهر الموجودات في بعضها البعض. لن أنسى تحديقي، كأنما أستعيد وقفتي بعيني آخر كان يراقبني، كثيرًا ما رصدت مغيب الشمس، من شواطئ البحار، من قلب البحر، رغم أن الماء موصول بالماء إلا أن هذا بحر وذاك محيط. توالى بعد ذلك وقوفي على شاطئ المحيط من البرتغال، إلى أن عبرته في اتجاه المكسيك، لم أدر يومئذ أنني سأدنو من حده لأتطلعَ إلى الناحية الأخرى متسائلا إلى أي وجهة أولي بالضبط؟ أولي ليكون بيني وبين ابني وابنتي خط مستقيم متوهم، كلاهما يسعيان الآن في نيويورك.

الفندق حديث، يقوم في الساحة التي كنا نضطر إلى عبورها جريًا لهبوب الرياح الباردة، تقلصت مساحتها الآن بعد إقامة هذه المباني التي قربت المدينة من واجهة القاعدة الخرسانية التي جرت محاولات لتجميلها بمنظومة إضاءة، لكنها تركت بألوان الأعمدة التي لم تُطْل إلا بالقار الأسود في بضعة أماكن، من داخل الخرسانة تبدو عيدان حديدية غليظة القطر، السقف مصمم بحيث يتحمل أثقل أنواع القنابل والطوربيدات، تحته تمتد الأحواض المستطيلة التي تئوي الغواصات التي كانت تنطلق من مكانها إلى عرض المحيط، في المراجع التي قرأتها عن الحرب تقدر الخسائر الناتجة من هجوم الغواصات بالطن نسبة إلى حمولة المركب الغارقة، كم أغرقت هذه القاعدة، وكم غرق منها؟ ما تزال بعض قاعاتها المنفصلة عن بعضها بأبواب مصفحة، منفرجة الآن، لا أعرف استخداماتها الأصلية، خالية تمامًا، جدران هائلة الارتفاع، لماذا.. مع أن الغواصات منخفضة حتى عند ظهورها الأقصى بعد

استقرارها من دون حمولة، ما المدى الذي وصلت إليه كل منها؟ ما أبعد نقطة؟ استعدت لحظة دخولي إحدى غواصات سلاحنا البحري بصحبة صاحبي وزميلي مكرم جاد الكريم. بقي ماثلا عندي لحظة التحرك إلى عرض البحر، ثم بدء الغوص، إنه الطفو حيث لا فوق ولا تحت، لا بعد هنا أو هناك، لحظة تطلعي من النافذة المستديرة ملتزمًا ببطء الحركة ومحدوديتها، كل حركة تستهلك قدرًا من الأكسجين المتاح للطاقم، ماذا في الغواصة التي تعمل بالطاقة النووية إذن؟ تمضي شهور عدة تحت السطح، على عمق كبير، في بداية سعيي قرأت كتابًا مترجمًا عن غواصة اسمها «نوتيلوس» أبحرت تحت المتجمد الشمالي، لحظة تطلعي من العمق وكان الوقت نهارًا، أشعة الشمس نافذة، لم نلج بعد الطبقات المعتمة، ألصقت وجهي بزجاج النافذة المستدير المحدود، المضغوط، لا نهائية الأزرق، مقبلة، مدبرة، لَكَم استعدتها كما أثق أنني سأسترجع هذا البناء بتفاصيله الواضحة والغامضة بعد انتهاء وظيفته الأصلية التي صمم من أجلها، فوق السطح حيث أبراج المدفعية المضادة للطائرات كان الضباب كثيفًا في الصباح الباكر، حاولت التحديق حتى أرى المحيط غير أنني لم أستطع، ليست بسبب الكثافة إنما لعدم معرفتي الاتجاه الذي يجب أن أتجه إليه، يبدو الخليج ممتدًا إلى ما لا نهاية، لا يلوح مصب حتى امتزاج الماء بالضباب، إلى اليسار لمحت سفينة ركاب مرتفعة أحدث من تلك التي رأيتها منذ عامين بعد نزولي من القطار، من دون استفسار يمكنني القول إنها منطقة لإصلاح السفن، ربما لإعادة تجهيزها، يبدو هذا من الأوناش والروافع والعربات الساعية.

أنزل من أعلى فوق الدرج الحديدي، الحلزوني الموصل إلى طابق أدنى يؤدي إلى الدرج الأسمنتي، كل المبنى أسمنتي، لا قالب حجري ولا جدار مغاير، مصمت، الإنارة ليست من فتحات دائرية تتخلل السقف تتحاور مع حركة الشمس والنجوم لتجمع أطراف النور وتصبه باتجاه معلوم، هكذا الحال في معابد أبيدوس ودندرة والكرنك الأقدم، الضوء هنا يفد من الواجهات المفتوحة على الخليج، كل مرسى تتقدمه فتحة بارتفاع المبنى تسهل خروج الغواصة إلى الخليج، ثم.. أين المحيط؟ لم أصل إلى شاطئه المرة السابقة لضيق الوقت، في هذه المرة متسع لكنني لم أحدد الوجهة حتى الآن، أتمنى أن أولي الوجه إلى حيث يسعى محمد وماجي هناك، ما يستثيره المحيط عندي مغاير لما يأتيني من البحر مع أن الماء واحد، يتردد عندي بيت للشيخ أحمد برين المنشد يطفو مهيمنًا:

البحر واحد والسمك ألوان.

أحاوره عن بُعد:

الماء واحد، لكن ثمة محيطات وبحارًا وأنهارًا وبحيرات وخلجانًا.

في المساء كنت أجلس في بار صغير، لمحت به علامة نوع من البيرة التي لا أجدها بسهولة إلا في فرنسا، وبالطبع في هولندة وبلجيكا منشأها الأصلي، بيرة قوية كثيفة منشؤها الأديرة. يعدها الرهبان في أيام الصوم الكبير لإمداد الجسم بطاقة وحرارة، كنت أحتسي على مهل، مستعيدًا المذاق الذي أفتقده حتى عودتي عندما

لمحت باتريك، دعوته إلى تناول زجاجة «وستامول تريبل» تطلع إليها قال إنها قوية بالنسبة إليه، إنه يفضل نوعًا آخر أخف. أضمرت دهشتي، لا أراه إلا ويبادر إلى طلب النبيذ أو أنواع أخرى من الخمر بحسب أوقات النهاء كما قال لي المرة السابقة، لا أعرف الشرب إلا عند السفر، يرتبط الأمران ببعضهما، رغم ذلك أتحمل هذا النوع وهو لا يقدر. هادئ، يميل إلى الصمت، يعتبرنا كلنا ضيوفه، قادر على إشعار كل منا أنه معني به شخصيًا.

قلت إن حفل تسليم الجائزة كان مؤثرًا، وبخاصة رئيس لجنة التحكيم، عضو الأكاديمية الفرنسية تناول نسخة وقرأ على الحاضرين فقرات منها ثم توجه إلي مرددًا رير.. رير، لَكَم بدا مهيبًا، متواضعًا:

يومئ برنارد، يقول:

كان رجلا رائعًا..

كان؟

رحل مسيو بريتيه العام الماضي، كان مريضًا بالسرطان.

حركته المتمهلة، إشارة إصبعه، انحناءته تجاهي، ميل رأسه، إمساكه للكتاب الضخم، ورغم أن أخبار الرحيل لم تعد تفاجئني لاعتيادي على الغريب غير المتوقع، إلا أنني فوجئت بقدر ما، هذا إنسان لم ألتق به إلا مقدار وقوفي على خشبة المسرح، ترك عندي أثرًا، لطالما استعدت كلماته، تطلعه نحوي، صار من الواردات المباغتة حيث لا أتوقع.

مرة أخرى أردد لنفسي باستحالة بقاء الأشياء على ما هي عليه، لو غبت ساعة عن موضع ورجعت، ثمة ناقص وزائد، لا يبقى شيء، حتى المحيط الذي قيل لي إن المدينة تطل عليه، لم أقف عند شاطئه حتى الآن، لم أعرف بعد الدرب المؤدي. لم ألم بالمدينة. رغم بساطتها الظاهرة، وضوح مضمونها ما بين شوارع عرضية وأخرى رأسية إلا أن ثمة شيئًا غامضًا لم أضع يدي عليه يحول بيني وبينها.

نويت أن أصحب ماجدة في الاتجاه الذي أشار إليه باتريك، أن أصل الشاطئ من دون أن أستدل من أحد، حتى لو فقدت الطريق فلن يطول الأمر، المساحة محدودة، حددت الخامسة للبدء، يمكنني اللحاق بالندوة التي ستبدأ في السابعة وتستمر إلى الثامنة والنصف حيث يبدأ تناول العشاء، غدًا في العاشرة تجيء السيارة التي ترحل بنا إلى لاروشيل، يا عالم، هل سأعود إلى هنا مرة أخرى أم لا؟

رن هاتف الحجرة في الثالثة، ظننته خالد، إلا أن ما أتاني كان صوت باتريك المتأمل، الخافت، قال إنه يدعوني لحضور اجتماع سيقام في الخامسة لتأبين الأستاذ بريتيه، على الفور قلت إنني سأكون أول الحاضرين، قال باتريك راضيًا إنه كان متأكدًا. الحق أنني استنفرت لأداء واجب بدرجة ما تجاه إنسان أبدى تقديرًا وأطل عليَّ بمدده، ما تزال مَسْكة كتابي بيديه عند تطلعه نحوي.

الخامسة..

يعني ذلك أنني لن أرى المحيط. يختفي في الليل، فقط سأسمع أمواجه وهدير الأصوات الغامضة السابحة عبره، كما أنني لا أعرف الطريق المؤدية بعد، كاد يقين يرسخ عندي أنني لن أراه ولو مكثت أعوامًا، ربما فهمت خطأ أنه قريب غير أنه بعيد. لا بد أن الذين بنوا قاعدة الغواصات هذه اختاروا الموقع بعناية حتى لا يتعرض لهجوم مباغت وعنيف من العمق، لا بد أنه بعيد، ولا بد أنه قريب، ليس من المعقول تعريض الغواصات للأخطار إذا ما سلكت طريقًا ظاهرًا لفترة غير قليلة، غير أمر سان فازير، كل مدينة مطلة على البحر يمكنني تعيين الجهة التي يمتد فيها الماء الأعظم، كل المدن، صغيرة أو كبيرة. إلا تلك، حتى الآن لا أقدر على الإمساك بالجهة، ولكن من أجابوني كانت إشاراتهم عامة غير محددة.

رغم أنني لا ألم جيدًا بالفرنسية جلست مصغيًا إلى ما يقال، كان المتحدثون الأربعة فوق الخشبة نفسها التي صعدت إليها لأتسلم مظروف الجائزة، ولأقف دقائق بوقفة خالد لنصغي إلى كلمات الأستاذ بريتيه عن روعة النص وجمال الترجمة، الجائزة لكلينا، لم أفهم معظم ما يقال، غير أنني لم أطلب من ماجدة أن تترجم لي، كنت مستغرقًا في محاولة استعادة ملامح الرجل وحضوره، بعد انتهاء التأبين توقفت أمام المنضدة التي تحمل كتبه، اشتريت أحدها وكان عن رحلة إلى بورما، أمسكته بيدي رغم صغر حجمه، تمامًا كما رفع كتابي إلى محاذاة صدره، قلت لماجدة: من رائحة الرجل، قالت إنها ستقرؤه لي، كنت أفكر عندئذ في المحيط ونزول الليل والمبنى الأسمنتي الذي سيحيرني لفترة طويلة.

في الصباح هبت ريح باردة لم أستطع تحديد مصدرها، يستحيل

تحديد منابع الرياح، النقطة التي يبدأ منها السريان، ربما في نقطة ما من عمق الكون، ما نعرفه اتجاهاتها.

وضعنا الحقائب في السيارة عبر الباب الخلفي، كانت حديثة، تتسع لنا، يقودها مرافقنا المتأني في حركته، يعرف ألفاظًا عربية ينطقها بفصحى غير سليمة، قال إنه أمضى ثلاث سنوات مدرسًا للغة الفرنسية في مصر الجديدة.

يتحرك على مهل، نلوح لخالد وزوجته غلا، سيركبان قطار العاشرة المتجه إلى باريس مباشرة، سان فازير في هدوئها الصباحي الذي يبدو من هدوئها المعتاد، المبنى الخرساني غامض ما زال، يستدير بالعربة إلى طريق قصير، يبدأ عند سور البناية المحاذية للفندق. أحاول رؤية التفاصيل، ما سيتبقى، الوصول والمغادرة، لكن.. هل كان هنا؟ بهذا القرب؟

أمامنا على بُعد عشرين مترًا يلوح الماء اللا نهائي. شاطئ مغطى بأوراق الخريف المتساقطة من الشاطئ القديمة المبثوثة على أبعاد متساوية لم تستأصلها معارك الحرب وغارات الحلفاء ثم نزولهم الكثيف، ثمة ما يشبه النصب، درجة من الزرقة الصافية، غمامات خفيفة هناك، يمكن رؤية الأفق الذي سيلد آفاقًا متوالية، اندفعت العربة بمحاذاته لمسافة لم تستغرق إلا دقيقة تقريبًا. استدارت لتوغل في شارع رأسي يؤدي إلى الطريق السريع، استدرت محدقًا في الزرقة وانعكاسات الضوء الشمسي على التموجات القادمة، قائد العربة، المدرس العجوز يدفع بالسرعة، يبتعد كلٌّ عن الآخر.

لقــاء

هي..

لم أتوقعها. لم أربط بين الصوت وشخصها الذي أعرف. بالأمس اتصلت بي عبر الهاتف. قالت إنها سوزانا؛ أستاذة الأدب العربي، تزور مصر وترغب في رؤيتي، حددت لها موعدًا، بالضبط جاءت في الواحدة، عندما اجتازت الباب مبتسمة، سارية، فوجئت.. ظننت أنها طالبة من اللواتي يدرسن اللغة العربية، اعتدت ذلك، أعرف طريقة النطق التي تختلف طبقًا للبلد الذي ينتمي إليه الطالب أو الطالبة، تتأثر اللغة العربية باللغة الأولى، للروس نطق، وللفرنسيين آخر. كذلك وسط أوربا الذي تنتمي إليه، لم أصل بين الصوت وتلك الرقراقة، الطيفية التي التقيتها عند زيارة الجامعة في عاصمة موطنها، رحبت بي وصحبتني إلى جولة في المكتبة الوطنية، ما زلت أرى خطوها، ملامحها التي لم تفارق سنوات طفولتها، حديثها عن عملها مترجمة لفترة من الوقت في شركة بالإمارات، أيضا مجيئها إلى مصر كمرافقة للمجموعات السياحية، بعد عودتي إلى مصر تلقيت منها رسائل بالبريد الإلكتروني، في أحد المكالمات الهاتفية

مع أستاذها أثناء عبوره القاهرة بسرعة، قال إن سوزانا تُكن مودة خاصة لك، احتفظت برسائلها الإلكترونية، إحداها تحتوي صورة لها مرتدية فستان سهرة، تقف مُشرعة كمسلة، ثلاث سنوات فارقة بين لقائي بها هناك وظهورها على غرفة مكتبي، عابرة الفراغ بيننا، مرتدية كنزة من الصوف، ياقة مرتفعة. بنطلون جينز.

تهللت، قلت معترفًا إنني لم أسمع جيدًا. لم أربط بينها وبين الصوت الذي سمعته أمس وإلا كان الرد اتخذ مسارًا آخر..

من مجلسها تتطلع إليّ مبتسمة، شفتان ثريتان منفرجتان بقدر، ملتقى دهشة متأصلة، طفولية الملمح، فيها قبول أيضًا وإعراض، عندما تتنافر العناصر تبدأ الحيرة، أستفسر عن أيامها القاهرية، تقول إنها مبسوطة جدًّا، زارت الخان والمعز، أمضيت وقتًا في بيت السحيمي، لكنها لم تذهب إلى مدينة الموتى بعد، ومنطقة سقارة.

تتطلع إليّ من أسفل إلى أعلى، تميل إلى الأمام، قوامها فاره، لَكَم عاودني بعد رجوعي من ديارها التي أقمت فيها أسبوعين، رافقتني خلال ترددي على الجامعة، عندما أقبلت في المكتبة الوطنية، لحظة ظهورها، دخولها مجال بصري سطع ألقها، كأنها نابعة من صميم أمنياتي، ها هي أمامي، يفصلها عني سطح المكتب، الباب مغلق، لكن يمكن لأي قادم أن يدير المقبض ويدخل مباشرة.

أتجاوز عن تلميحها زيارة القاهرة القديمة وسقارة، تمنيت ألا تذكر ذلك مرة ثانية، لم تتبدل ملامحي، لم أبدِ أي رد فعل، سألت عن محل إقامتها، قالت إنها تسكن مع طلبة قرب جامعة القاهرة،

منهم صاحبة لها، من موطنها، لكنها من مدينة تبعد عن العاصمة حوالي مائتي كيلو متر، إنها هنا الآن لدراسة اللغة العربية، تقيم في حجرة بمفردها، مكان نظيف، مريح.

لم أستفسر عن نوعية الطلبة، ذكور مع إناث، أم جميعهن من بنات جنسها، يبدو لنا الأمر مثيرًا، ولكن بعد فترة من المعايشة واكتمال الإحاطة بالدخائل نقف على غير ما نتصور، ليس ضروريًا وقوع الاتصال مع الإقامة تحت سقف واحد، أفهم ذلك الآن بعد طول تجوال واطلاع، لم أهتم بتحسس المسالك المؤدية إلى الإحاطة بصلاتها، علاقاتها، تبدو راغبة في البوح، لا.. في القربى، أو الصحبة.

بعد مساحة صمت أقطعها بسؤالي عن احتياجاتها من الكتب، تقول إنها اشترت عددًا من الروايات الجديدة، لكنها لا تجد كتبًا ذات شأن في مجال النقد والبحث الأدبي، أجيب محتجًّا لأنها لم تسألني عن العناوين التي تريدها، كان يمكن أن أوفرها، عندي إلمام بما يصدر، ليس في القاهرة ولكن في الأقاليم، أقول إن المطابع تدفع بأعداد كبيرة من النصوص، لكن الفرز أمر صعب، فعلاً يحتاج الأمر إلى حركة نقدية، حدثتني عن أستاذها: إيمانويل المهتم بالدراسات الأدبية، سألتها عما إذا كنت رأيته خلال أيامي هناك، قالت بدهشة: تناولنا معه العشاء، والتقيته مرتين في الجامعة، أومأت برأسي مرتين، مدعيًا أنني تذكرته الآن. لم أحتفظ له بأي ملامح. ولم يستدع اسمه أو حديثها عنه أي قسمات محددة، غير أنني رأيتها هى في هذا العشاء الذي حضره ثلاثة من أساتذة الأدب العربي، درسوا في مصر الستينية، توالت أسئلتهم عن المطاعم التي

اختفى معظمها الآن، عن مقاهي وسط المدينة، عن الندوات التي رحل أصحابها الآن فتوقفت، كنت أجيب على كل الأسئلة غير أن بصري وبصيرتي توجها إليها هي، حلّا عندها وأحاطا بها، عند نزولنا السلم العتيق حرصت أن أكون دانيًا، غير عابئ بمن يرافقونني، تواقًا كنت إلى الطواف بهامتها وقامتها السرحة وغصونها الواعدة وقتئذ بالنسبة لي. ذلك أنها كما هي لا تزال، عين السموق، والانحناءة إلى الأمام، الابتسامة بين بين، توثب الطفولة وكمال الأنوثة، تستعصي على التحديد.

تطرق قليلا إلى الأرض، ترفع رأسها فجأة، نظرتها مقبلة، مقتحمة، متخلية عن كل تحفظ، بل إنها لمحرضة، ابتسامتها خفيفة، انفراجة شفتيها السخيتين، تدعوني بالصمت إلى حيزها، مدارها، أعرف ذلك، غير أنني بقيت متثاقلا في مكاني، متمنيًا شروعها في الانصراف، أو قيامها فجأة معلنة الرغبة في الذهاب.

ماذا يجري لي، أخشى أن يبدو على ملامحي بعض مما يعتمل عندي، أعبر الحدود إلى اللالياقة غصبًا عني، ماذا كنت أريد تلك الليلة أكثر مما يطالعني الآن؟! ومع ذلك لا أقدم، تثقلني أمور لا أقدر على تحديدها أو تعيينها، أتساءل محسورًا: هل مرت بي تلك اللحظات حقًا؟

تلك الليلة في أقدم مطاعم المدينة، السابقة على سفري، كل من التقيته في العاصمة تقريبًا، حتى السيدة التي رافقتني من المطار، تمتد المناضد متجاورة في هيئة مستطيل، يبدو أن بعضهم لمح اهتمامي بها وحرماني حولها، أجلسوها إلى جواري، عندها

استقرت والتفتت إليّ مبتسمة، أدركني خجل دفع بي إلى التواري عندي فكأني أنكمش متداخلاً، غير أنني مع سريان الوقت وتبادل الأنخاب وتتابع الكلمات والأسفار عن المودة صرت أتنسم رائحتها، وألامسها بدون تقارب، عندما خرجت لترد على مكالمة محمولها ترددت لحيظة ثم نفرت في أثرها، الشارع خال تماما، الهواء بارد، تقف مرتدية القميص فقط، تتحمل البرد بتأثير العادة، أو الدفء الذي ما زال ساريًا من الداخل، انتظرت حتى فرغت، عندئذ تقدمت، ملامسًا جيبيْ بنطلوني بطرفي الإبهامين، يمكنني الآن رؤية وضعي بعينيها، الغريب المستنفر إلى أقصى حد، أقبلت ملامسًا منحنى كتفيها، غير أنها أزاحت يديّ برفق هين، رددت بالعربية الفصحى الممتزجة بلكنة سلافية:

«ليس الآن.. ليس الآن..».

جرى تجاذب، إصرار وإصرار مضاد، انتهى بعودتها إلى الداخل بينما بقيت في الفراغ البارد حتى يخف تهجدي، عدت إلى مقعدي منحنيًا، مبتسمًا بتكلف، مالت عليّ مبتسمة، قالت إنها تتمنى لي رحلة طيبة، ثم قالت إنني لطيف جدًا، صادق جدًّا جدًا.

لم أجبها بلفظ، فقط ابتسامة انتزعتها بصعوبة حتى لا يلوح ضيق، خاصة أن القوم بلغوا حد الرفرفة، بعد احتساء الشراب الجيد والتهام الطعام الجيد، أصبح الطعم حارًا.

تميل تجاهي أكثر، خشيت قيامها فجأة، دورانها حول المكتب، الاقتراب أكثر مما يجب، غير أنها حننت ملامحها، رققت صوتها:

«لماذا تبدو بعيدًا؟!».

حدقت بالصمت بينما صورة جزء من شارع الأزهر يمثل في ذاكرتي، أحاول عبوره إلى دكان حلواني شهير، لا أنطق، تبدو هي القصية، مسافة لا يمكنني عبورها لو شرعت، كأن ملامحها لم تعبر بصري قط، جد نائية، حدقت صوبها متمنيًا عبور اللحظات التي تجمعنا وتقربنا في المكان وعودتي منفردًا.

«هل أضايقك؟».

أوشكت على تحريك رأسي نفيًا، غير أنني لم أقدم، تجمدت، وفدت عليّ من ثنايا الذاكرة لحظة زحام عند مدخل نفق مؤدٍّ إلى خط المترو الرئيسي في مدينة ما.

«ألا ترغب في مصاحبتي إلى أماكنك الأثيرة؟!».

أقطب زامًّا شفتيّ بينما تواصل..

«أنت وعدتني بذلك..».

أرى أشخاصًا يتوافدون واحدًا بعد الآخر في مناسبة ما وأمامي جدار عريض..

ســـاعَــات

في عام تسعة وستين من القرن الماضي، صدرت المجموعة الأولى لجمال الغيطاني «أوراق شاب عاش منذ ألف عام». لم تكن ميلادًا لكاتب كبير، مجدد، تمكَّن من تحقيق خصوصيته في فن القص منذ سن مبكرة، إنما كانت فتحًا جديدًا لاتجاه جديد، ورؤية مغايرة للتعامل مع الموروث الأدبي. منذ ذلك الحين لم يكف الغيطاني عن التجريب، خلال رحلته الإبداعية التي تتجاوز نصف القرن الآن تطورت القصة القصيرة عنده، واتخذت آفاقًا عديدة. في إبداعه ارتبط الخاص بالعام، ولاحت القضايا الكبرى التي تشغله مثل الحرية، العدالة، إدانة القهر، مع طرح الأسئلة الكبرى بين الثنايا. في مجموعته «ساعات» التي كتب نصوصها خلال السنوات العشر الأخيرة، تبدو خلاصة التجربة والرؤية النافذة إلى جوهر الوجود، والوجود الإنساني، وأشواق الروح. وحيرة الإنسان تجاه الزمان، حيث ترى البصيرة عمق الرؤى في العادي المألوف. خاصة الزمن وما ينتج عنه الذي حيّر الغيطاني طوال رحلته الإبداعية وما زال.





دار الشروق
www.shorouk.com